الفصل الحادي والستون

أديان العرب

والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهـــة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفـات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، سلكوا في ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنـــا بالأديان .

وتقابل كلمة (دين) العربية لفظة Religion في الانكليزية من أصل (لاتيني) هو Religere أو Religare . وآراء العلماء المعنيين بتأريخ الأديان وفلسفتها على اختلاف كبير جداً في وضع حد علمي مقبول بين الجميع لموضوع الدين ، وربما لا يوجد موضوع في العالم اختلفت في تحديـده الآراء كهذا الموضوع : موضوع ماهية الدين وتعريفه ، حتى صار من المستحيل وضع إطار يتفق عليه لصورة يجمع على أنها تمثل الدين . والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله كاتب ، هو أن يكتب رأيه بوضوح فيما يعنيه من (الدين) ، فإذا فعل ذلك ، صار من المعروف مـــا قصد صاحبه منه [١] .

وقد عرّف بعض العلماء الدين أنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعـــة والبشر، يكون لها أثر في حياة هذا الكون [٢] . وعرفه آخرون أنه استمالة واسترضاء

---

١ Sir James G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magig and Religion, Vol.. I, p. 50, Abridged Edition, London, 1947.

٢ E.B. Tylor, Primitive Culture, I, p. 424, Ency. Brita. Vol.. 19, p. 103.

لقوى هي فوق البشر ، يؤمن أنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الانسان[1]. وهو عند بعض آخر شعور وتفكير عند فرد أو جماعة بوجود كائن أو كائنات إلهية ، والصلة التي تكون بين هذا الفرد أو تلك الجماعة وبين الكائن أو الكائنات الإلهية[2] . وهو يطلق بهذا الاعتبار على الإسلام كما يطلق على اليهودية والنصرانية وعلى المجوسية وعلى غيرها من أديان سواء أكانت سماوية أم غير سماوية كما يصطلح على ذلك بعض العلماء .

وهناك تعريفات وحدود كثيرة أخرى للدين، نشأت من اختلاف أنظار الباحثين بالقياس الى مفهوم الدين . فهناك مسائل كثيرة مختلف فيها : هل تدخل في نطاق حدود الدين أو لا كما ان مفهومه قد تغير عند الغربيين باختلاف العصور[3] .

وليس من السهل وضع حدود معينة لمعنى الدين ، فإن وجهات نظر الأديان نفسها تختلف في هذا الباب . وللدين في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدين عند غيرهم ، ومفهومه في نظر الأقوام المتقدمة يختلف باختلاف دينها وباختلاف وجهة نظرها الى الحياة . وهناك أمور تدخل في حدود الدين عند بعض أهل الأديان ، على حين انها من الأمور الأخلاقية أو من أمور الدولة في نظر بعض آخر ، ومن هنا تظهر الصعوبات في تعيين المسائل التي تعدّ من صلب الدين في نظر الجميع[4] .

وللدين مهما قيل في تعريفه ، شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن أتباع الديانات الأخرى، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك[5] ، ولهذه الأمور أثر بالطبع في النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذ تطبع أتباع الدين بطابع مميز خاص .

وقد زعم بعض المستشرقين ان لفظة (الدين) من أصل أعجمي ، وانها من

---

١ The Golden Bough, Vol.. I, p. 222, Abridged Edition, p. 50.

٢ H. Schmidt, Philosophische Wörterbuch, S. 551.

٣ Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol. 10, p. 662, Art. Religion, Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 13-14, p. 228, Ency. Brita., Vol., 19, p. 103, Friess and Schneider, Religion in Various Cultures, New York, 1932.

٤ Ency. Relig., Vol. 10, p. 263, Ency. of Social., Vol. 13-14, p. 228.

٥ Ency. Relig., Vol.. 10, p. 663.

الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي هو (دَيْنا) Daena [1] . وقد دخلت في العربية قبل الاسلام بمدة طويلة . وترد لفظة (دين) بمعنى الحشر في الإرميـة والعبرانية كذلك . وهي (دينو) في الإرمية . وتقابل لفظـة Daino الإرمية لفظة الديان في العربية . وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة . وتعني لفظة (دين) القضاء في اللغة البابلية . و (ديان) (ديونو) Dayono ، الحاكم والمجازي والقاضي في لغة بني إرم [2] . وهي بهذا المعنى في العربية أيضاً [3] .

والدين في تعريف علماء اللغة : العادة والشأن . تقول العـرب : ما زال ذلك ديني وديدني ، أي عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد . وقد ورد في الحديث: (كان على دين قومه) ، أي كان على ما بقـي فيهم من إرث ابراهيم ، من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الايمان . وجاء : (كانت قريش ومن دان بدينهم ،أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه،واتخذ دينهم له ديناً وعبادة) [4] .

ومن (دين) الديّان ، بمعنى الحكم القاضي والقهار . ومن ذلك مخاطبة (الأعشى الحرمازي) الرسول بقوله :

يا سيد الناس وديّان العرب .

والديان : الله ، ومن أسماء الله [5] .

وقد وردت هذه اللفظة في المعنى المفهوم منها في الاسلام في بيت شعر ينسب الى أميّة بن أبـي الصلت ، هو :

كلّ دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلاّ دين الحنيفـة زور [6]

---

١ Handwörterbuch des Islams, S. 98, Grundriss, der Iran. Philoso. I, I, S. 107, 270, I, 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58, Schorter Ency. of Islam, p. 78, Ency. I, p. 975, Zeitscher. fur Assyr., Bd., XIV, S. 351.

٢ برصوم (ص ٦٠) ، غرائب اللغة (١٨٢) .

٣ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) .

٤ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٥ اللسان (١٣/١٦٦ وما بعدها) ، (دين) ، تاج العروس (٩/٢٠٨ وما بعدها) ، (ديـن) .

٦ الاغاني (٤/١٢٢) ، (دار الكتب المصرية) .

غير أننا لا نستطيع أن نحكم بورودها في شعر أمية ما لم نثبت أن ذلك الشعر هو من شعره حقاً ، وأنه ليس بشعر إسلامي صنع ووضع على لسانه ، فقد وضعت أشعار وقصائد على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء .

ووردت بهذا المعنى أيضاً في النصوص الثمودية . وردت في نص سجله رجل من قوم ثمود ، توسل فيه إلى الإلـه (ودّ) ، أن يحفظ له دينه ، (ا ل ه د ي ن ي ق . ي د)[1] ، ووردت في نص آخر جاء فيه : (بدين ود امت)[2] ، أي (بدين ودّ أموت) ، أو (على دين ودّ أموت) . فاللفظة إذن من الألفاظ العربية الواردة في النصوص الثمودية ، وقد يعثر عليها في نصوص جاهلية مدوّنة بلهجات عربية أخرى .

ويصنف بعض العلماء، الأديان، الى صنفين: أديان بدائية Primitive Religions ، وأديان عليا The Higher Religions ، غير أن هذا التقسيم لا يستند الى التسلسل الزماني ، وإنما يقوم على أساس دراسة أحكام الدين وعقائده وعمق أفكاره . فالأديان التي تقوم على أفكار بدائية وعلى السحر Magic وعلى المبالغة في التقديس وتقديم القرابين Sacred ، والتي تنحصر عبادتها بأفراد قرية أو قبيلة واحدة ، وأمثال ذلك مما يشرحه علماء تأريخ الأديان وعلماء فلسفة الأديان ، هي من أديان الصنف الأول . فإذا توسع مجال الدين وشمل قبائل عديدة ، وتعمق في أحكامه وفي تشريعه وفلسفته ، وصار الإلـه أو الآلهة إلهاً ذا سلطان واسع أو آلهة ذات سلطان واسع عدّ الدين من الأديان العليا[3] .

وأما تقسيم الأديان الى أديان قبيلية Tribal Religions ، و(أديان قومية) National Religions ، وأديان مطلقة عامة(Absolute (Universal Religions) (Religions ، فإنه ، وإن كان تقسيماً واضحاً ظاهراً بالقياس الى الطرق الأخرى لتقسيم الأديان ، يرد عليه أنه تقسيم بني على أسس وحدود ليست لها أرض صلبة في جوهر الدين وأركانه ، فهو بعيد عن المبادىء الأساسية التي تجب مراعاتها في تقسيم كل علم أو موضوع[4] . كذلك تجابه التقسيم الثلاثي للأديان الى (أديان

---

١ Grimme, S. 34, 40.
٢ Mu 646/17, Grimme, 40.
٣ ENCY. BRITA., Vol. 19, p. 107.
٤ Ency. Brita. Vol. 19, p. 111.

الطبيعة) Nature Religion . و(ديانة الشريعة) Geztzes Religion ، و(ديانة الخلاص) Erlosungs Religion عند بعض العلماء الألمان صعوبات كبيرة تجعل السير على أساسه في دراسة تطور الدين أمراً عسيراً شاقاً[1] .

وتستند دراسات علماء تأريخ الأديان لتطور الأديان والأدوار التي مرت بها الى دراسة أمور كثيرة تأريخية ونفسية واجتماعية واقتصادية،ولهم في ذلك جملة طرق ، منها طريقة الدراسات المقارنة The Comparative Method ، وهي تعتمد كما يتبين من اسمها على المقارنات بين الأديان ، فتتناول جميع النواحي بالبحث ، لتجد ما بينهـــا من مطابقات ومفارقات . ومنهـــا طرق البحث التأريخـــي والاجتماعي Historical and Sociological Methods وتستند الى الدراسات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الأخرى ، للنـاس وللمنطقة التي عاشوا فيها ، وأثر كل هذه العوامل في نمو الأفكار الدينية وظهورها . وطـــرق عديدة أخرى تذكر في كتب تواريخ الأديان[2] .

وقد تقدمت دراسة تأريخ الأديان تقدماً كبيراً ، ولا سيما بعد اتبـاع أساليب الطرق التجريبية والبحوث المقارنة والتحليل النفسي في هذه الدراسة . وظهر بحث جديد شائق طريف ، هو (فلسفة الدين) The Philosophy of Religion ،أفاد كثيراً في معرفة دراسة تطور الأديان ومبادئها الأساسية ، كما ظهرت فروع أخرى كهذا الفرع لها صلة بدراسة الدين وتقدمه ، كالفرع النفسي الذي يعتمد عـــلى الدراسات النفسية للدين ، وهو فرع نستطيع أن نسميه بـ (علم النفس الديني) The Psychology of Religion في الانكليزية و Religionspsychologic في الألمانية[3] . وكالفرع الذي يعتمد على أساليب بحث الاجتماع وطرقه لدراسة الدين باعتبار أن الدين نفسه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية[4] .

وهناك عوامل عديدة لها أثرها في تطور الأديـان ، وفي (تكييفها) ، منها أثر (العوامل الطبغرافية)Topographic Factors . وأثر (المحيط) Climatic Factors

---

١ Philosophische Wörterbuch, S. 552.

٢ Ency. Relig., 10, p. 964.

٣ Strattons, Psychology of he Religious Life, 1911, Ency. Brita., 19, p. 111, Schmidt, S. 554.

٤ Schmidt, S. 554, J. Wach, Einfuhrung in die Religion, 1941.

وأثر الحالات النفسية في تكييف الدين ، وفي تصور الناس لآلهتهم . ولهذا تصور اليونان مثلاً آلهتهم على شاكلتهم ، تصوروها ذات أخلاق وصفات تشبه أخلاق البشر وصفاتهم ، تتخاصم وتتصادق وتتباغض ويحسد بعضها بعضاً ، تشرب الخمر وتحزن وتفرح ، وتسرق أيضاً . ونجد في الـ (ايدا) Edda نفسية الشعوب الشمالية الأوروبية ممثلة في الأساطير التي تتحدث عن الآلهة والأبطال[1] .

ويظهر أثر العوامل المذكورة في الديانة الهندية القديمة ، وهي من الديانات الآرية ، وفي الديانة المجوسية ، وهي من أهل السهول وديانات أهل الجبال ، وبين ديانات الساميين الشماليين وديانات الساميين الجنوبيين ، يظهر في الأساطير (Mythlogy) وفي تصور الآلهة وتقديمها وتأخيرها وما شابه ذلك من أمور[2] .

ولشكل المجتمع أثره كذلك في تطوير الدين وفي أحكامه . فمجتمع يقوم على الزراعة يختلف في تفكيره عن مجتمع يعيش على الصناعة أو على الرعي في بوادٍ واسعة ، كذلك للسياسة ولأشكال المجتمعات السياسية دخل في تطور الأديان . وقد كان التعاون وثيقاً جداً في الأيام الماضية خاصة بين السلطات الزمنية وبين السلطات الدينية حتى كان الحكام الزمنيون كهاناً في كثير من الأوقات ، كما حدث أن وقع اختلاف بين السلطتين أدى الى حدوث تغيير في عقيدة الحكومة أو أكثرية الشعب .

وطالما أدى قهر مدينة أو قبيلة أو شعب الى قهر آلهتها معها وموتها ، والى عبادة آلهة القاهرين المتغلبين باعتبار أنها أقوى وأعظم شأناً من آلهة المغلوبين التي لم تتمكن من حمايتهم من تعديات الغالبين . وقد تبقى تلك الآلهة فتندمج في آلهة المغيرين ، فيزداد بذلك العدد ، وتتعدد الآلهة ، وتختلط الأساطير بعضها ببعض وتتداخل . ولهذه الناحية أهمية كبيرة في تحليل عناصر هذه الأساطير ، ورجْعها الى منابعها الأولى . كذلك يكون للجوار وللصلات التأريخية والروابط الثقافية أثر في ديانات الشعوب وفي (تكييفها) ويكون للثقافة خاصة أثر بارز في هذا التوجيه.

غير أن للأديان كذلك أثرها في توجيه الأفراد والقبائل والشعوب ، وفيما ينتج عن عمل الإنسان من مجتمعات وسياسة وثقافة واقتصاد[3] . فهذه نواحٍ يجب أن

---

١ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٢ Ency. Social.. 13-14, p. 232.

٣ Ency. Social. 13-15, pp. 234.

تلاحظ كلّها في دراستنا لتأريخ الأديان . هذا ويجب ألاّ نتصور أن أديان العرب قبل الإسلام لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، فلم تأخذ من الأمم والشعوب التي اتصلت بها شيئاً ، جرياً على نظرية القائلين بعزلة العرب وبعدم اتصالهم بالخارج ، وبأنهم بدو ، لا علم لهم ولا رأي ولا دين . وهي نظرية نشأت عن عدم وقوف القائلين بها بأحوال العرب قبل الإسلام . وإذا وافق أولئك على أن اليهودية والنصرانيـــة كانتا في جزيرة العرب قبل الإسلام كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وأن من العرب من كان على دين يهود ، وأن منهم من كان على دين النصارى ، فلـن يستطيعوا إنكار ورود اليهودية والنصرانيـــة الى العرب من الخارج بعمـــل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق . وسيوافقون أيضاً على أن الوثنيين قد تأثروا كذلك بوثنية غيرهم ، كما نص على ذلك الاخباريون وانهم أثروا في غيرهم أيضاً .

إن معارفنا عن أديان العرب قبل الاسلام مستمدة في الدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتهـــا المتعددة من معينية وسبئية وحضرمية وأوسانية وقتبانية وثمودية ولحيانية وصفوية ، وهي نصوص ليس من بينها نص واحـد ويالأسف في أمور دينية مباشرة ، مثل نصوص صلوات أو أدعية دينية أو بحوث في العقائد وما شابه ذلك . غير أن هذه النصوص المذكورة ، ومعظمها كما قلت سابقاً في أمور شخصية ، حوت مع ذلك أسماء آلهـــة ذكرت بالمناسبة ، وبفضلها عرفنا أسماء آلهة لم يصل خبرها الى علم الأخباريين ؛ لأن ذكرها كان قد انطمس وزال قبـــل الإسلام . ومن هذه النصوص استطعنا أن نستخرج آلهة القبائل العربية القديمة ، وأن نرجعها الى المواضع التي كانت تتعبد بها لها ، وأن نعين العصور التي كان الناس فيهـــا يتعبدون لها على وجه التقريب .

كذلك تعدّ الكتابات والنقوش المدوّنة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم ، مورداً مفيداً لمعرفة أديان العرب قبـل الإسلام بعد النصوص العربية . فقد وعت أسماء أصنام قديمة نصت عليها ، وبذلك ساعدتنا في الوقوف على عبادتها وعلى من تعبّد لها من قبائل .

وأما أديان العرب قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فالقرآن الكريم هو مرجعنا في هذا الباب . ففيه ذكر لما كان عليه الناس ولا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء ، وفيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي كانت تتعبد لها القبائل .

وفي تفسير القرآن الكريم تفصيل وشرح لما جاء موجزاً في الآيات البينات، ويضاف الى ذلك ما ورد عن هذا الباب في الحديث .

وفي الشعر المنسوب الى الشعراء الجاهليين إشارات الى بعض عقائد الجاهليين ، والى بعض الأصنام ، تعرّض لها شرّاح الدواوين بالمناسبات،وترد هذه الاشارات في القصص المروى عن أخبار الجاهلية وعن أنساب قبائلها وأيامها وأمثال ذلك وفي كتب الأدب واللغـة والمعجمات ، وهي تعيننا بالطبع على زيادة مادتنا في هذا الموضوع .

ويضاف الى ذلك ما ورد في كتب السير والمغـازي وفي كتب التواريخ من كتب خاصة مثل تأريخ مكة ، ومن كتب عامة عن عبادات القوم قبـل الوحي وفي أثناء الوحي وعن أمر الرسول بتحطيم الأصنـام والأوثان . وقد ورد بهـذه المناسبة أوصاف بعضها ، وذكرت بعض المواضع التي كانت قائمة فيها ، والقبائل التي كانت تتعبد لها ، وما أُدير حول بعضها من قصص ، أو ما قيـل عنها في الجاهلية وفي تحطيمها من أقوال .

ومما يجب علينا ملاحظته ، ان الشعر الجاهلي الـذي أمدّنا بفيض من معارف قيّمة عن الجاهلية القريبة من الاسلام ، لم يمدنا بشيء مهم عن الحياة الدينية عند الجاهليين ، فكأنه أراد مجاراة من دخل في الاسلام في التنصل من أيام الجاهليـة ومن التبرؤ منها ، ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الاسلام . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان رواة الشعر في الاسلام ، قد أغفلوا أمر الشعـر الجاهلي الذي مجّد الأصنام والوثنية ، وأهملوه ، فلم يرووه ، فمات ، وان بعضاً منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية ، ورفع منه أسماء الأصنام ، وأحلّ محلها اسم الله ، حيث يرد اسم الصنم . فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي ، كان اسم صنم في الأصل .

وقد ألّف بعض العلماء مؤلفات خاصة في الأصنام ، وصل الينا منهـا كتاب (الأصنام) لابن الكلبي[1] . أما المؤلفات الأخرى ، فلم يصل الينا منها إلا الاسم.

---

١ « كتاب الاصنام » بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٥ م الطبعـة الثانية ، « مطبعة دار الكتب المصرية » ، وسيكون رمزه : الاصنام . وقد طبـع الكتاب مرارا ، وترجم الى الانكليزية والالمانية والى لغات أخرى .

وممن ألّف في هذا الموضوع أبو الحسن علي بن الحسين بن فضيل بن مروان[1] ، والجاحظ[2] . وقد استفاد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي ، وأورد ما أخذه منه في الكتاب . أمـا النسخة التي اعتمد الحموي عليها ، فكانت بخط عالم مشهور وبروايته هو الجواليقي[3] .

وقد تعرض ابن الكلبي لذكر الوثنية والأصنـام في مؤلفاته الأخرى عرضاً ، وأشار (ياقوت الحموي) في بعض المواضع الى روايات أخرى لابن الكلبي عن الأصنام ، ذاكراً انها ليست من كتاب (الأصنام) . كما استقى من منبع آخر ، هو محمد بن حبيب[4] .

وقد ألّف أبو عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع كتاباً في أديان العرب وآرائهم ، اسمه (آراء العرب وأديانها) ، وقف عليه ابن أبي الحديد ، وأشار الى بعض هفوات رآها فيه[5] . وللجاحظ مؤلف اسمه (أديان العرب) استفاد منه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[6] .

وبالرغم من فضل من تقدم ممن ذكرت وممن لم أذكر ، على دارس التأريخ الديني للجاهليين فإنهم عفا الله عنهم ، لم يتعمقوا تعمقـاً كافياً في بحوثهم عن الوثنية ، ولم يتحرشوا بها في الغالب ، إلا بسبب اتصالهـا بالاسلام ، ثم إن في كثير مما ذكروه عن الوثنية طابع السذاجة وأسلوب الصنعة . وهو في أحوال الوثنية في الحجاز وعند القبائل التي ورد لها ذكر في حوادث الاسلام في أيام الرسول ، في مثل قدوم وفود سادات القبائل على النبي ، وأمر الرسول بتحطيم الأصنـام . ولهذا لا نجد للوثنية في بقية مواضع جزيرة العرب ، مكاناً فيما كتبه أولئك العلماء

---

١ « كتاب الاصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبـارك اسمـه » ، الفهرست (ص ١٢٥) ، الاصنام (٢٣) ، « الرد على عبدة الاوثان » ، معجـم الادباء (١٣٢/١) .

٢ الاصنام (٢٣) ، وقد نقل منه (النويري) في كتابه نهاية الارب (١٥/١٦) ، (فهو ما نقله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ رحمه الله ـ في كتاب له سماه : كتاب الاصنام ، قال فيه ...) .

٣ الاصنام (٢٤) .

٤ J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, S. 12.
وسيكون رمزه : Reste

٥ بلوغ الارب (٣٠٨/٢) .

٦ Brockelmann, Suppl.. I, S. 946.

عن الأصنام والأوثان أو الزندقة . ثم ان في الذي ذكروه وكتبوه تناقض محير ، وتنافر عجيب ، يجعلك تشعر ، ان رواة تلك الأخبار ، لم يكونوا يملكون يومئذ أدوات النقد لصقل ما سمعوه من أفواه الرواة ، وما نقلوه عمن أدرك الجاهلية من أقوال ، أو انهم كانوا يعمدون الى الوضع أحياناً : لصنع أجوبة عن أسئلة وجهت اليهم في أمور لم يأتهم علم بها من قبل .

خذ ما ذكره (الطبري) في تفسيره عن اللات والعزى ومناة ، تجده يروي أقوالاً ذكر سندها تتناقض فيما بينها بشأن هذه الأصنام ، وبشأن بيوتها ومواضعها، مما يدل على أن رواة تلك الأخبار لم يكونوا على علم بأخبارها ولا وقوف على حقيقتها ، بدليل أن كل واحد منهم ناقض غيره فيما قاله ، وأن أحدهم يذكر خبراً ثم يعود فيذكر ما يناقضه[1] . حدث كل ذلك في أمور كانت باقية الى ما بعد فتح مكة ، فكيف حالهم اذن في الأمور البعيدة نوعاً ما عن الاسلام .

ولا تتناول الموارد الإسلامية بعد ، إلا الوثنية القريبة من الإسلام والوثنية التي كانت متفشية بين قبائل الحجاز في الغالب ، وبين القبائل التي اعتمد عليها رواة الأخبار في جمع اللغة والأخبار.لذلك لا نجد فيها ذكراً للوثنية البعيدة عن الاسلام، فلم يرد فيها مثلاً أي شيء عن (المقه) إلـه سبأ الأكبر ولا عن بقية الآلهة العربية الجنوبية الكبيرة مثل (عثتر) ، وعن دين العرب الجنوبيين وشعائرهم ، ولا عن معبودات قبائل العربية الشرقية : أو قبائل العراق أو بلاد الشأم في الأزمنة البعيدة أو القريبة من الإسلام .

وأما أخبارها عن اليهودية والنصرانية ، فقليلة جداً ، قصتها وروتها لما لها من تماس وصلة بما جاء في القرآن الكريم ، أو لما لها من علاقة بأيام الرسول . ولهذا صارت خرساء صامتة بالنسبة الى أحوال أهل الكتاب في بقية أنحاء جزيرة العرب أو في العراق وفي بلاد الشأم . فلم تتحرش بهم إلا بقدر . وبسبب ذلك صارت معارفنا عنهم قليلة جداً . وقد كان في إمكان أهل الأخبار جمع معلومات واسعة عن النصرانية في العراق قبل الإسلام ، برجوعهم الى رجال الدين النصارى الذين كانوا في الحيرة وفي مواضع أخرى من العراق ، وهم رجال لهم علم واسع بهذه الأمور ، لكن اختلافهم عنهم في الدين على ما يظهر ، وانصرافهم إذ ذاك

---

١ تفسير الطبري (٣٥/٢٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٥/٤) ، (عزز) .

عن رواية كلّ ما يتعلق بالأمور الجاهلية خلا ما يتعلق بالنواحي القبلية وبالنواحي الأدبية واللغوية ، كانا من العوامل الـتي أدت الى غض نظرهم عن البحث في هذه الأمور .

وبفضل إقرار الاسلام لبعض أحكام وشعائر الجاهليين ، استطعنا الوقوف على جانب من أحكامهم وشرائعهم . فعرفنا بذلك بعض شعائر الحج من حجّ مكة ، وبعض أحكامهم وآرائهم في الدين ووجهة نظرهم الى الحلال والحرام ، والتقرب الى بيوت الأرباب وغير ذلك . وما كان في وسعنا الوقوف عليهـا لولا تعرض الإسلام لها بالإقرار والتثبيت ، أو بالتحريم والنهي،فأشير الى كلّ ذلك في القرآن الكريم وفي كتب التفسير وأسباب النزول والحديث .

وقد عُني المستشرقون بهذا الموضوع ، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب(بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums [1] و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielsen [2] و (لودولف كريـل) Ludolf Krehl وغيرهم[3] .

وقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام ومن غيره،ذلك لأن كتاب الأصنام لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً ايام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية .

ويعدّ كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه المستشرقون عن الوثنية العربية . وقد كتب المستشرقون حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي عثر عليها في الكتابات فاتَ ذكرها في كتـاب (ولهوزن) ، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ ، ولأن كثيراً منها قد نشر حديثاً ، فلم يكن في استطاعة (ولهوزن) بالطبع أن يبحث في شيء من التفصيل في الوثنيـة ببلاد العرب الجنوبية . لذلك كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات

---

١ استعملت الطبعة الثانية ، وقد طبعت ببرلين سنة ١٩٢٧ م .

٢ Ditlef Nielsen, Die Altorabische Mondreligeon und die Mosaische Meberlieferung, Strassburg, 1904.

٣ Ludolf Krehl, über die Religion der Varislamishen Araber, Leipzig, 1863.
اذا أردت أسماء بعض المراجع عن هذا الموضوع ، فارجع الى :
D. G. Pfannmüller, Handbuch der Islam — Literatur, 1923.

الأخباريين . فمن الضروري اضافة هذه البحوث الجديدة الى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الاسلام .

وتفيد الأعلام الجاهليـــة المركبة Theophorus Names المدوّنـــة في النصوص الجاهلية وفي الموارد الاسلامية فائدة كبيرة في معرفة الأصنام ، وفي تكوين فكرة عنها . ففيها أسماء آلهة ، وفيها بعض الصفات الإلهية التي كان يطلقها الناس على آلهتهم . ونجد هذه الأسماء المركبة عند بقية الشعوب السامية كذلك . ومن مقارنة هذه الأسماء بعضها ببعض ، استخرج العلماء آلهة اشترك في عبادتها جمع الساميين[1].

ونعني بـ Theophorus Names الاعلامَ المركبة من أسماء آلهـــة ومن كلمات أخرى مثل (عبد) و (عطيـــة) و (امرىء) و (أوس) و (عائذ) و (جار) و (عوذ) و (وهب) . ترد قبل اسم الإلـه أو بعده ، فيتألف منها ومن أسماء الآلهة أسماء أعلام ، مثل عبد الأسد،وعبد الله ، وعبد سعد، وعبد العزّى ، وعبد محرق ، وعبد ذي الشرى ، وعبد يغوث ، وعبد ودّ ، وعبد قيس ، وعبد شمس ، وامرىء القيس ، وأمثال ذلك من أعلام .

ومعظم هذه الأعلام المدونة في مؤلفات الاسلاميين ، أسماء أشخاص عاشوا في الجاهلية القريبة من الاسلام ، حفظتها ووعتها ذاكرة الرواة ، ومنهم تناقلها أهل الأخبار . والغالب عليها الابتداء بكلمـــة (عبد) للرجال و (أمت) أي أمة للنساء ، ترد قبل اسم الصنم . أما الأسماء المبتدأة بكلمات أخرى غير (عبد) ، فمثل (أحمس الله) و (امرىء مناة) ، و (امرىء القيس) ، و (أنس الله) و (أوس الله) ، و (تيم اللات) ، و (خليل) ، و (زيد اللات) ؛ و (زيد مناة) ، و (سعد اللات) ، و (سعد مناة) ، و (سعد ودّ) و (سعد العشيرة) ، و (سكن اللات) ، و (سلم اللات) ، و (شراحيل) و (شرحيل) ، و (شرحبيل) ، و (شكم اللات) ، و (شهميـــل) ، و (شيع القوم) ، و (عائذ الله) ، و (عمرو اللات) ، و (عوذ مناة) و (عينيل) ، و (قسميل) ، و (مطرويـــل) ، و (وهب اللات) . وهي قليلة من حيث الاستعمال بالقياس الى الأعلام المبتدأة بـ (عبد)[2] .

---

١ Dr. H. Brau, Die Altnordarabischen Kultischen Personennamen, in WZKM, Bd. 32, 1925, S. 31. ff. 85. ff. Reste, I. ff, Ency., Religi.. I p: 659

٢ Reste, S. I.

ويلاحظ على بعض الأعلام المركبة ، مثل عمرو اللات ، وعوف إيل ، وجد اللات ، وسعد مناة ، وودّ ايل ، ان الكلمات الأولى من هذه الأسماء تتأخر في أعلام أخرى ؛ فتسبق بكلمة توضع قبلها فيتكون منها علم مركب جديد كما في الأسماء الآتية : عبد عمرو ، وعبد عوف ، وعبد جدّ ، وعبد سعد ، وعبد ودّ ، وقد كانت متقدمة في الأعلام الأولى . أما في هذه الأعلام فصارت في المنزلة الثانية .

وهذه الأسماء التي حفظتها ذاكرة أهل الأخبار ، تخالف أكثر الأعلام العربية والسامية القديمة المدوّنة في النصوص وفي مؤلفات اليونان والرومان والسريان وغيرهم من حيث الصيغ والتراكيب . فقد ابتدأت هذه الأعلام كما رأينا بكلمات تلتها أسماء الآلهة . أما الأعلام القديمة ، فقد كانت على العكس تبدأ باسم الصنم، وبعده الألفاظ الأخرى ، مثل : (الشرح) (ايل شرح) و (اليفع) (ايل يفع) و (الذرح) (ايل ذرح) و (الكرب) (ايل كرب) و (السمع) (ايل سمع) و (اليشع) (ايل يشع) وأمثال ذلك . أو تبدأ بكلمات ثم تليها أسماء الأصنام ، إلا أنها ليست في حالة الإضافة، بل على صورة الإخبار والفاعلية، مثل (يذكر ايل) و (يشع ايل) و (يدع ايل) و (يشرح ايل) و(يسمع ايل) . و (ايل) (ال) هنا هو اسم الإلـه (ال) (ايلو) المعروف عند جميع الساميين[1] .

وقد يوضع حرف الجر ، وهو (اللام) (لامد) في الاسم ، ليدل على تعلق الاسم بالإلـه ، مثل (لحي عثت) في النصوص العربية الجنوبية ، وقد عثر على طائفة من هذه الأعلام في الكتابات الفينيقية والعبرانية [2] .

وقد تهمل الكلمة الثانية من الاسم المركب ، ويقتصر على اللفظة الأولى ، كما في : أوس ، وزيد ، ووهب ، وتيم ، وسعد ، ونصر ، وعائذ ، وعبد ، وأمثال ذلك من أعلام . فإنها اختصار لـ (أوس الله) ، و (زيد اللات) ، و (زيد مناة) ، و (وهب اللات) ، و (تيم اللات) ، و (سعد مناة)

---

١ Reste, S. I, Nöldeke, über den Gottesnamen El, in Monatsberichte der Köni. Akademie der Wissenschaft zu Berlin, 1880, S. 761, 1887, S. 1175.

٢ Reste, S. 7, Nöldeke, in Wiener Zeitshrift für die Kunde des Morgenlandes, Bd., VI, S. 313.

و (سعد ودّ) ، و (سعد اللات) ، و (نصر اللات) ، و (عائذ الله) و (عبد ود) ، وغير ذلك . وقد يحدث العكس ، فتسقط الكلمة الأولى ، وتبقى الكلمة الثانية التي هي اسم الإلـه ، ويصير هذا الاسم اسماً لشخص أو لأسرة أو لقبيلة ، مثل : مناف ، وغنم ، وشمس ، وإساف ، ونائلة ، وزهـرة ، وقيس ، وعُطارد ، وهبل ، وجدّ ، وأمثال ذلك . فإن هذه هي أسماء آلهة في الأصل ، سبقت بكلمات مثل (عبد) ، ثم أهملت هذه الكلمات الأولى ، وبقيت أسماء الآلهة حية ، ولكنها صارت أسماء لأشخاص وأسر وقبائـل ، تسبقها لفظة (بنو) في بعض الأحيان ، لتدل على الانتماء الى ذلك الاسم[1] . ولهذا الانتماء أهمية كبيرة في نظر الباحثين في فلسفة الأديان وتأريخها .

ويلاحظ أن بعض الأعلام المركبة المبتدأة بـ (عبد) مثلاً ، لا تتكون كلمتها الثانية من اسم إلـه ، إنما تكون اسم موضع أو اسم شخص أو اسم جماد ، مثل: عبد حارثة ، وعبد المطلب ، وعبد أمية ، وعبد الدار ، وعبد الحارث ، وعبد الحجر ، وما شاكل ذلك . ولبعض العلماء تفاسير وتعليلات في العوامل التي أدّت الى هذه التسميات : منها أن بعض هذه الأسماء هو لآلهة قديمـة ، نسيت فظن أنها أسماء أشخاص : وأن بعضاً آخر منها هو أسماء أشخاص كانت لهم قدسيـة أو منزلة خاصـة ، فتبرك الناس بتسمية أولادهم عبيداً لهم ، وهو شيء يحدث حتى الآن ، إذ نقول عبد المسيح ، وعبد الرسول ، وعبد علي ، وعبد الأمير ، وعبد الزهرة ، وعبد محمد ، وان بعضاً آخر هو مسمّيات لمجتمعات ، مثل : عبد أهله ، وعبد العشيرة ، وسعد العشيرة ، أو انـه نسبة الى طوطم أو جماد مقدس في نظر الناس[2] .

وقد قضى الاسلام على الأسماء الوثنية ، كما قضى على كثير من معالم الجاهلية ، فاستبدل من أسلم اسمه الجاهلي الذي له صلة بصنم أو بشرك باسم إسلامي ، وبذلك زالت تلك التسميات . كما زالت أكثر التسميات اليهودية والنصرانية بدخول أصحابها في الإسلام . وهـذا شيء مألوف في تأريخ الانسان . فقد قضت اليهودية على الأسماء الوثنية القديمة ، وعوضت عنها بأسماء يهودية ذات صلة بالتوراة ، وقضت النصرانية على الأعلام الوثنية ، أو طورتها لتكون ملائمة مع النصرانيـة ، وهكذا

---

١ Reste, S. 7. ff.

٢ Robertson, p. 42, Reste, S. 4.

حدث في الأديان الأخرى ، بل وهـذا ما يحدث اليوم في كثير من أنحاء العالم القلقة عند وقوع انقلابات سياسية ، حيث تتناول الأسماء أيضاً بالتغيير والتبديل ، لتناسب الوضع الجديد .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الصحابة ، كانت أسماؤهم ذات صلة بالأصنام ، فلما أسلموا أبدلها الرسول بأسماء اسلامية . فقد كان اسم كاتب النبي (عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم) (عبد يغوث) فلما أسلم ، دعي (عبدالله)[1] . وكان اسم (عبدالله بن أصرم بن عمرو بن شعيثة) الهلالي ، (عبد عوف بن أصرم) ، فلما قدم على النبي ، فقال من أنت ؟ قال عبد عوف ، قال النبي : أنت عبدالله ، فأسلم[2] . ونجد غيرهما وقد أبدل الرسول أسماءهم ، حتى صار من يسلم يبدل اسمه إن كان له صلة بصنم ، حتى ماتت الأسماء الجاهلية التي هي من هذا القبيل .

والأساطير Mythos = Myth ، ونعني بها هنا الخرافات والأقاصيص المتعلقة بالآلهة Legend ، هي مصدر مهم لمعرفة تطور الأديان وتطور فكرة الألوهية عند الشعوب . وهي قد تكون شعراً ، وقد تكون نثراً،وفي كلتا الحالتين تكون مادة خصبة للباحثين .

ومعارفنا عن الأساطير العربية الدينية قليلة جداً . وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم كاليونان والرومان والفرس وعند بقية الآريين ، بـل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى مثل البابليين[3] . وفي رأيي اننا لا نستطيـع أن نجزم في مثل هذه الأمور ، لأن أحكامنا عن اليونان والرومان والبابليين انما استنبطناها من نصوص ومؤلفات وصلت الينا . أما العرب الجاهليون ، فلم يصل الينا منهم حتى الآن نصٌ ما في هذا الموضوع، يمكننا من الحكم بعدم وجود الأساطير الدينية عند العرب الوثنيين .

ومشكلتنا أننا لا نملك كما قلت نصوصاً دينية جاهلية ، ولا كتباً كتبها يونان أو لاتين أو سريان أو غيرهم عن أساطير العرب في الجاهليـة نستطيع استخراج

---

١ الاصابة (٢/٢٦٥) ، (رقم ٤٥٢٥) .
٢ الاصابة (٢/٢٦٧) ، (رقم ٤٥٣٤) .
٣ Ency. Religi. I, p. 660.

حكم منها عن أساطير العرب . ولكن هذا الوضع لا يخولنا نفي وجود الأساطير عند العرب ، بحجة بداوتهم وضيق أفقهم وبساطة تفكيرهم ، كما أنه لا يخولنا أيضاً الحكم بوجود أساطير عندهم من طراز عال كما نجده عند اليونان مثلاً . ويتبين من بعض روايات الأخباريين ، وهي قليلة ، أن العرب كانت لهم أساطير كالذي رووه من أن (العَيوق) عاق (الدبران) لما ساق الى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لهـا ، ولذلك سموا هذه النجوم القلاص[1] وكالذي رووه عن (العَبُور) و (الغُمَيصاء) و(سُهَيْل). وقد كانت هذه النجوم مجتمعة ، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً ، وتبعته العَبُور فعبرت المجرّة ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت[2]. وكالذي رووه من أن (الزُّهرة) كانت امرأة حسناء ، فصعدت الى السماء ومسخت نجماً ، وأمثال ذلك من قصص يظهر أنه من بقايا قصص أطول قديم[3] .

وإذْ لم تصل الينا نصوص دينية جاهلية ، صعب علينا تكوين فكرة صحيحة عن مفهوم الدين عند العرب ، وعن كيفية عبادتهم لآلهتهم ، وعن كيفية تصورهم للآلهة ، خاصة عند العرب الذين عاشوا قبل الميلاد .

وقد تعنينا أسماء الآلهة والأعلام المركبة في تكوين وجهة نظر عن صفات آلهة الجاهليين . فكلمات مثل (ودّ) و (شرح) و (سعد) و (سمع) ، أو تعابير مثل (ذت حمم) (ذات حميم) و (ذت صنتم) (ذات صنتم) و (ذت رحبن) (ذات رحبن) و (ذت بعدن) (ذات بعدن) (وذ قبضم) (ذو قبضم) وما شابه ذلك ، لا بد أن تكون لها معان خاصة تشير الى صفات الآلهة التي قيلت لها ، فتفيدنا في فهم عبادة الجاهليين وتفكيرهم في تلك الآلهة .

وإذا كانت بعض أسماء الآلهة أو صفاتها واضحة مفهومة تمكن الاستفادة منها في تكوين فكرة عن الآلهة ، فإن هناك بعضاً آخر يحيط بمعناه الغموض ، فلا نستطيع شرح معناه أو ترجمته الى اللغات الأخرى . وليس من المعقول بالطبع عدم وجود مدلول أو مراد لأسماء هذه الآلهة عند من وضعها لها ، ونسبها اليها ، وانما المعقول هو ان هذه المسميات نسيت بتقادم الزمن وبزوال دولتها وعظمتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) .
٣ البلخي : البدء والتأريخ (٣/١٤) .

من الوجود ، وضاعت معالمها ، فلم يبق منها إلا الأسماء المجردة[1] . ولعل معانيها كانت غامضة حتى على من كان يتعبد لها ، لاختفائها منذ زمن طويل ، وعدم ورود نصوص مدونة الى المتعبدين لها في هذه المعاني،وهذا شيء مألوف معروف .

وتختلف نظرة الانسان الى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة (الله) (الإلـه) التي تقابل كلمة Deus في اللاتينية وكلمة Theos في اليونانية وكلمة God في الانكليزية ، تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها . فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة . كذلك اختلفت عند سكنـــة البوادي عن سكنـــة الجبال والهضاب،ويختلف مفهوم فكرة الله عند الشعوب السامية عنها عند الشعوب الآرية، لأسباب عديدة يذكرها علماء تأريخ الأديان[2] . بل يختلف هذا المفهوم في داخـــل الشعب الواحد ، يختلف فيه باختلاف ثقافة الانسان وتقدم مداركه العقلية، فتصور كل انسان خالقه على قدر عقله ودرجة ثقافته ، صوّره وكأنه مرآة صافية لنفسه ولدرجة نمو عقله . ومن هنا قيل : ان الانسان يصنع إلهـه بنفسه ، أي يصوره على نحو صورته ومبلغ تفكيره .

يقول (أكسينوفان) Xenophanes : « تصور الأحباش آلهتهم فطس الأنوف، سوداً . وتصور أهل (تراقية) Thracians آلهتهم ذوي عيون زرق وشعر أحمر . وزعم اليونان أن تصورهم للآلهة هو التصور الصحيح . أما تصور الزنوج وأهل تراقية عن آلهتهم ، فهو تصور فاسد باطل ! ولو كان للماشية والخيل والسباع أيد تتمكن من الرسم والنحت ، لرسمت الخيل آلهتها على صورة خيل،ولنحتت تماثيلها على صورتها ، ولرسمت الماشية ونحتت آلهتها على صورتها وهيئتها، تماماً كما يصور الانسان وينحت آلهته على صورته وقدر إدراكه . كـل صنف يتصور ويرى آلهته على صورته »[3] . وقد نسب اليونان الى آلهتهم كل الصفات والأعمـــال الانسانية المعروفة بين اليونانيين ، فتصوروهم على هيئة بشر ، لهم الفضائل،ولهم الرذائل، يتزوجون وينسلون ويحبّون ويعشقون ويسرقون ويكرهون ويتخاصمون بينهم ويتحاسدون

---

١ Handbuch, S. 189.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 243, W. Robertson Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1894, p. 5, Ency. Britd., 10, p. 480, «Lyod».

٣ Ency. Religi., 10, p. 113.

ويقومون بأقبح الأعمال كما يفعل الانسان[1] .

وهناك أشكال عديدة للعبادة ، تمثل تعدد وجهة نظر الانسان بالقياس الى مفهوم الألوهية لديه . فهناك عبادة تسمى عبادة آباء القبائل ، حيث أسبغ على أجداد القبائل ما يسبغ عادةً على الآلهة من نعوت وصفات . وتجد هذه العبادة عند القبائل البدائية . وقد يكون هؤلاء الأجداد أجداداً حقيقيين ، وقد يكونون أشخاصاً خلقتهم الأساطير . ومهما يكن من شيء ، فقد أعطي هؤلاء صفات الربوبية ونعوتها ، ونظر اليهم نظرة من فيه قوى خارقة ذات هيمنة على العالم والخلق . وقد اصطلح على تسمية هذه العبادة بـ All Fathers في الانكليزية وبـ Verehrung des Stammesvaters و بـ Urvaters في الألمانية ، لأنها تقوم على أساس عبادة الأجداد[2] .

وألّه بعض الناس الظواهر الطبيعية ، لتوهمهم أن فيها قوى Spirit روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان، مثل الشمس والقمر وبعض النجوم الظاهرة. وقد كانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي لفتت أنظار البشر اليها ، لما في الشمس من أثر بارز في الزرع والأرض وفي حياة الانسان بصورة مطلقة . كذلك للقمر أثره في نفس الإنسان بما يبعثه من نور يهدي الناس في الليل ، ومن أثر كبير يؤثر في حس البشر . فكانا في مقدمة الأجرام السماوية التي ألّهها الانسان. عبدهما مجردين في بادىء الأمر ، أي دون أن يتصور فيهما ما يتصور من صفات ومن أمور غير محسوسة هي من وراء الطبيعة . فلما تقدم وزادت مداركه في أمور ما وراء الطبيعة ، تصور لهما قوى غير مُدْرَكة ، وروحاً ، وقدرة ، وصفات من الصفات التي تطلق على الآلهة . فخرجتا من صفتهما المادية البحتة ومن طبيعتهما المفهومة ، وصارتا مظهراً لقوى روحية لا يمكن ادراكها ، إنما تدرك من أفعالها ومن أثرهما في هذا الكون .

وإذا كانت هذه العبادة قد اقتصرت على الظواهر الطبيعية البارزة المؤثرة ،

---

١ Ency. Religi., 10, p. 113.

٢ في الاصل « Father ours » ، وقد أطلق « هويت » « Howitt » الاصطلاح « All Father » عليه ،

Howitt, Native Tribes of S.E. Australia, London, 1904, Making of Religion, London, 1898, Ency. Religi., Vol. 6, p. 243.

فإن هناك توسعاً في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية ، يصل الى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك ، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها ، فعبدوها على أن لها أثراً خطيراً في حياتهم . ونجد في أساطير الشعوب البدائية أن الإنسان من نسل الحيوان ومن الأشجار أيضاً ، كذلك تجد أمثلة عديدة من هذا القبيل في أساطير اليونان والرومان والساميين .

وهناك الشرك ، وهو عبادة آلهة عديدة ، كما ان هناك عقيدة التوحيد التي تدين بوجود إلَه واحد خالق لهذا الكون . وليس للشرك بالطبع عدد معين من الآلهة ، فقد يكون بضعة آلهة ، وقد يكون عشرات . والشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد ، ويعرف بإسم : Polytheism في الانكليزية من كلمة Polys اليونانية ومعناها (كثير) و (تعدد) ، ومن كلمة يونانية ثانية هي Theos وتعني (الإلَه) (الآلهة) . ويختلف الشرك عن عقيدة الـ Polydaemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، كما يختلف عن أديان التوحيد Monotheism من حيث القول بتعدد الآلهة ، وعن القائلين بمبدأ (الحلول) (Pantheism) من حيث حلول الإلَه في الخلق والخلق في الإلَه[1] .

وتطلق في العربية كلمة (إلَه) على الإلَه الواحد ، وكلمة (آلهة) في حالة الجمع ، أي في حالة القول بوجود آلهة عديدة . وتقابل كلمة (إلَه) كلمة (ايلوه) Eloah = Eloh في العبرانية الواردة في سفر (أيوب) . ومنها كلمة (إيلوهيم) Elohim في حالة الجمع ، أي آلهة المستعملة في العهد القديم بالقياس الى آلهة الوثنيين[2] . وكلمة (إلَه) لا تعني على كل حال إلهاً معيناً على نحو ما تعنيه لفظة (الله) في العربية التي يراد بها الله الواحد الأحد ليس غير .

أما (الله) ، وهي كلمة الجلالة ، فهي (اسم علم) خاص به على رأي، وهي (علم مرتجل) في رأي آخر . وقد ذهب الرازي الى انه من أصل سرياني أو عبراني . أما أهل الكوفة فرأوا انه من (ال إلَه) ، أي من أداة التعريف

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ Hastings, p. 299, Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency. Bibli., III, Col. 33239 Hebrew Lexicon, 42, Ency., II, p. 464.

(ال) ومن كلمة (إله) . وهناك آراء لغوية أخرى في أصل هذه اللفظة [١] .

ولم يعثر على لفظة (الله) في نصوص المسند ، وإنما عثر في النصوص الصفوية على هذه الجملة : (ف هـ ل هـ) ، وتعني (فالله) أو (فيا الله) و (الهـاء) الأولى هي أداة التعريف في اللهجة الصفوية . وقد وردت الجملة على صورة أخرى في بعض الكتابات الصفوية . وردت على هذا الشكل : (ف هـ ل ت) ، أي (فالات) (فيا الآت) أي في حالة التأنيث . وتقابل (الـلات) ، وهي صنم مؤنث معروف ذكر كذلك في القرآن الكريم [٢] .

ويظن بعض المستشرقين أن (الله) هو اسم صنم كان بمكة ، أو أنه (إلـه) أهل مكة ، بدليل ما يفهم من القرآن الكريم في مخاطبته ومجادلته أهل مكـة من اقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون [٣] .

وترد في العربيـة كلمة أخرى من الكلمات المختصة بالخالق ، هي (ربّ) وجمعها (أرباب) . وهي من الكلمات العربية الجاهلية المذكورة بكثرة في القرآن الكريم ، ولهـا معنى خاص في اللاهوت وفي الأدب العربي النصراني . وتقابل كلمة Lord في الانكليزية . وكلمة (بعل) ، و (ادون) في اللغات السامية الأخرى [٤] . ويذكر علماء اللغة أن (الربّ) هو الله ، هو ربّ كلّ شيء ، أي مالكه . وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربّ الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك ، ولا يقال الربّ في غير الله ، إلا بالإضافة .

وقد قال الجاهليون : (الربّ) للملك . قال الحارث بن حلزة :

وهو الربّ ، والشهيد على يو م الحيـارين ، والبلاء بلاء [٥]

ويظهر أن لفظـة (الرب) و (رب) كانت بمعنى (سيد) ومالك عند

---

١ الطبري : تفسير (١/٤٠) ، اللسان (١٧/٣٥٨) ، الكشاف (ص ٨) ، تفسير الرازي (١/٨٤ وما بعدها) ، البيضاوي (١/٤) طبعة (Fleisher) المفردات ، للاصفهاني (ص ١٩ وما بعدها) . Ency., II, p. 464.

٢ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٣ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248.

٤ Ency. Religi., Vol. 6, p. 248, Ency., III, p. 1088.

٥ اللسان (١/٣٩٩) ، (دبب) .

الجاهليين ، ولم تكن تعني العلمية عندهم . أي ألوهية خاصة بالله ، وهي تؤدي معنى (بعل) عندهم أيضاً . فكانوا يطلقونها على الإلـه والآلهة وعلى الإنسان باعتباره سيّداً ومالكاً . أما هذا التخصص الذي يذكره علماء اللغة ، فقد حدث في الإسلام من الاستعمال الوارد في القرآن الكريم .

و (ربّ البيت) ، الله ، وكذلك : (رب هـذا البيت)[1] . و (رب الدار) ، أي مالكها ، وكل من ملك شيئاً ، فهو ربّه . وبهذا المعنى (هو رب الأرباب) . أما (الربة) ، فعنوا بها الصخرة التي كانت تعبدها ثقيف بالطائف . وكان لهم بيت يسمّونه (الربة) و (بيت الربة) ، يضاهي (بيت الله) بمكة . فلما أسلموا هدمه (المغيرة) . و (الربة) : كعبة كانت بنجران ، لمذحج وبني الحارث بن كعب يعظمها الناس[2] .

وأما (بعل) ، فمعناها مالك وصاحب ورب في اللهجات السامية . فترد بعل الموضع الفلاني ، أي صاحب ذلك الموضع وربه . ومؤنث الكلمة هو (بعلت) . وترد كلمة (بعل) بمعنى زوج في العربية ، وقد وردت بهذا المعنى في مواضع من القرآن الكريم[3] ، وأما الزوجة ، فهي (بعلت) (بعلة) أي في حالة التأنيث[4] .

ولما كانت لفظة بعـل تعني الرب والصاحب ، صار اسم الموضع يرد بعـد (بعل) ، فيقال : (بعل صور) ، و (بعل لبنان) ، و (بعل غمدان)، أي رب المواضع المذكورة وصاحبها وسيدها . أما اذا وردت اللفظة مستقلة دون ذكر اسم الموضع المنسوب اليها بعدها ، فتعني عندئذ رب وإلـه، أي رب الجماعة المتعبدة المؤمنة به[5] .

وقد ورد في القرآن الكريم في صدد الكلام عن الياس Elijah « وانّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين . إذ قـال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعـلاً وتذرون أحسن الخالقين »[6] . وقد ذهب الطبري في تفسير (بعل) في هذه الآية الى أن بعـلاً

---

١ (فليعبدوا رب هذا البيت) ، قريش ، الآية ٣ .
٢ اللسان (١/٣٩٩ وما بعدها) ، (ربب) .
٣ البقرة : الآية ٢٢٨ ، هود : الآية ٧٥ ، النور ، الآية ٣١ .
٤ Ency., I, p. 610, Robertson, p. 94.
٥ Robertson, p. 94.
٦ الصافات ، الآية ١٢٢ وما بعدها .

تعني رباً في لغة أهل اليمن ، او ان المراد ببعل صنم[1] .

ومن رأي (روبرتسن سمث) Robertson Smith أن العرب اقتبسوا المعنى الديني لبعل من الأقوام السامية المجاورة لهم مثل سكّان (طور سيناء) أو موضع آخر ، أخذوه من تلك الأقوام التي عرفت باشتغالها بالزراعة ، ولا سيما زراعة النخيل ، وان هذا المعنى دخل اليهم بدخول زراعة النخيل الى بلاد العرب ، وأنه استعمل عند العرب المزارعين . أما البدو والرعاة ، فإنهم لم يستخدموا تلك اللفظة بالمعنى المذكور[2] . وهو رأي يخالف رأي بعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) Nöldeke و (وهوزن) Wellhousen الذين يرون أن عبادة (بعل) هي عبادة سامية قديمة كانت معروفة عند قدماء العرب منذ أقدم العهود[3] .

ويرى بعض المستشرقين ان لفظة (بعل) أطلقت خاصة على الأرض التي لا تعتمد في زراعتها على الأمطار أو على وسائل الري الفنية ، بل على المياه الجوفية وعلى الرطوبة في التربة ، فينبت فيها خير أنواع النخيل والأثمار ، فهي تمثل الخصب والنماء . والظاهر ان الساميين كانوا يخصصون أرضهم بالآلهة ، لتمنّ عليهم بالبركة واليمن ، فتكون في حمى ذلك الإلـه (بعل الموضع الفلاني) . ومن هنا صارت جملة (بعل سميم) (بعل سمن) (بعل سمين) تعني (رب السماء) ، ويعنى بذلك المطر الذي هو أهم واسطة من وسائط الإسقاء والخصب والنماء في جزيرة العرب وفي البلاد التي يسكنها الساميون[4] . ورأى مستشرقون آخرون ان جملة (أرض بعل) تعني الأرض التي تسقى بالأمطار[5] .

وذكر العلماء أن لفظة (الال) بمعنى الربوبية ، واسم الله تعالى . وأن كل اسم آخره (ال) أو (ايل) فمضاف الى الله تعالى ، ومنه (جبرائيل) و (ميكائيل) . وذكر أن (أبا بكر) لما سمع سجع (مسيلمة) ، قال : هذا كلام لم يخرج من ال ولا بر ، أي لم يصدر عن ربوبية[6] . وقد ذهب

---

١ تفسير الطبري (٢٣/٥٣) ، Ency., I, p. 610.

٢ Robertson, p. 97.

٣ Nöldeke, in ZDMG., Bd. 40, 1886, S. 174, Reste, S. 146, Handbuch, I, S. 240.

٤ Robertson, p. 97, Ency. Religl., I, p. 664.

٥ Reste, S. 146.

٦ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

بعض علماء اللغة الى أن اللفظة (ايل) من المعربات . عربت عن العبرانية، وهي فيها اسم الله[1] . وهي من الألفاظ العامة التي ترد في اللغات السامية ، ولا يعرف معناها على وجه مضبوط ، ويظن أنهـا بمعنى (القادر) و (العزيز) والقهار ، والقوي ، والحاكم . وترد في الشعر وفي أسماء الأعلام في الغالب . وقلـما نجدها ترد في النثر[2] .

وقد وردت في نصوص المسند وفي نصوص أخرى ألفاظ كثيرة مثل (ود) و (سمع) أي (سميع) و (حـكم) أي (حكيم) ، و (حلم) أي حليم) و (علم) أي (عالم) و (عليم) ، و (رحم) أي (رحيم) ، و (رحمنن) أي (الرحمن) ، وأمثال ذلك . ذكرت على صورة أسماء آلهة . لكنها في الواقع صفاتها لا أسماؤها . ذكرت في مقام ذكر أسماء الآلهة ، كما يقول المسلم في دعائه ربه يا سميع ويا حكيم ويا رحيم . وهي صفات وردت في القرآن الكريم .

وعلى من يريد الوقوف على رأي الجاهليين في طبائع آلهتهم وفي تعيين صفاتها، حصر هذه الصفات وضبطها ، وتعيين مدلولها ، وهي صفات تدل على معـانٍ خلقية مجردة . وسنتمكن بذلك من الوقوف على نظرة الجاهليين الى آلهتهم ، ومن تعيين وتثبيت عددها إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة ان أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة ، وانما هي صفات لها ، وان الكلمات التي لا يشك في كونها أسمـاء صحيحة قليلة جـداً ، ربما لا يتجاوز عددها الثلاثة ، هـي الثالوث . ومن يدري ؟ فقد تكون في النتيجه اسماً لإلـه واحد ، وعندئذ يمكن أن نتوصل الى نتيجة علمية بالقياس الى عقيدة الشرك أو التوحيد عند العرب الجاهليين .

ويجد الانسان اليوم سذاجة مضحكة في بعض العقائد الدينية التي كانت عنـد الشعوب القديمة ، ويستصعب تصور اعتقاد الناس بها ، وهو ينسى أن هذه العقائد أو بعضها على الأقل ، لا تزال معروفة بين بعض قبائل افريقية وأستراليا، وأماكن أخرى من العالم ، وان العقل الانساني في تطور مستمر ، وان هناك بشراً يؤمنون بعقائد ورثوها عن آبائهم لا تقل غرابة عن غرابة بعض المعتقدات الـتي نؤاخذ

---

١ تاج العروس (٢١٨/٧) ، (ايل) .
٢ Hastings p. 299 «God».

بها قدماء البشر ، مع أنهم من الشعوب المتقدمة في الحضارة وفي المدنيـة ، ومن القرن الـذي نفتخر بتسميته بقرن العقوق على الأم ، والهروب منهـا الى بيوت أخرى ، تكون بعيدة عنها ، سابحة في هذا الفضاء .

وقد يصعب على الانسان اليوم تصوّر وجود فائدة أو ضرر من أشيـاء جامدة لا يمكن قطعاً أن تضرّ أو تنفع ، ولكن القدماء تصوروه مع ذلك واعتقـدوه . فقدسوا الأحجار والأشجار والحيوانات ، وقدّسوا الأرواح والأمـوات من الآباء والأجداد والقديسين ، وتعبّدوا لها . ولهذه العبادات أسماء علميـة خاصة اصطلح على تسميتها العلماء .

والدين هو إيمان وعمل : إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر ، لها تأثير في حياته وفي مقدراته ؛ وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة ولاسترضائها . والإيمان هو قبل العمل بالطبع ، فلا بد للقيام بالشعائر ، أو بأداء العمل ، من وجود إيمان عنـد الشخص أو الأشخاص بوجود إلـه أو آلهة . حتى يقوم بعمل ديني[1] . فالعمل تابع للايمان ، ونتيجة من نتائجه ، وهو شعاره ومظهره . وهو أبرز عند الأقوام البدائية من الايمان لدرجة عقليتها ومجال تفكيرها الضيق . ومن العمل : الرقص ، والأفراح الدينية ، والسحر ، والقرابين ، والحج ، والصلوات[2] .

وقد أقر الاسلام أشياء من أمور الدين كان يمارسها الجاهليون في جاهليتهم ، لأنها لا تتعارض مع مبـادىء الإسلام . ودراسة أمثال هذه الأشياء توضح لنـا نواحي خافية علينا في الزمن الحاضر من الحياة الدينية عند الجاهليين ، لذلك أرى من الضروري تتبع هذه الأشياء لتدوين تأريخ صحيح للدين عند الجاهليين . وأرى من الضروري كذلك تتبع الأساطير والعادات الموروثة التي لها صلة وعلاقة بالدين الجاهلي بين الأعراب والحضر في كل أصقـاع جزيرة العرب ، ولا سيما القرى العربية النائية عن العمران المنعزلة عن الأعاجم ، فإن معظم هذه الأساطير والتقاليد هي من بقايا الوثنية العربية القديمة ، بقيت جذورها ثابتة راسخة في الأفئدة حتى اليوم .

---

١ The Golden Bough, p. 50, Abridged Edition.

٢ Ency. Brita., Vol. 19, p. 108.

ولا بد أيضاً لدراسة الدين عند الجاهليين دراسة صحيحة من الرجوع الى أصول الأشياء ، وأعني بأصول الأشياء هنا ديانة الساميين الأولى بشكلها البدائي القديم . فمن تلك الشجرة تفرعت أديان الشعوب السامية ، وفي ذلك الدين نجـد الأصول والأسس التي بنيت عليها الديانات الفروع .

أما كيف نتمكن من الرجوع الى الأصل ومن معرفة ديانة الساميين القديمة ، فموضوع ليس بالسهل اليسير ، ونحن ، وان كنا نملك بعض المؤلفات والبحوث عن أديان الساميين ، لا نستطيع أن نجرؤ فنقول ان البحث قد نضج فيه ، وان القوم قد استوفوه من أطرافه وأكملوه ، بل ان كثيراً ممـا تطرق اليه العلماء هو موضع جدل واختلاف ، ولن يمكن التوصل الى نتائج مقبولة معقولة إلا اذا تمكن الباحثون من الحصول على وثائق جديدة تكشف النقاب عن أديان قدماء الساميين.

وللتوصل الى تكوين رأي عن أديان الساميين القديمة لا بد من دراسة النصوص الدينية الساميّة كلها ، ودراسة كل ما له صلة بالدين عنـد الساميين ، ومقارنة الأديان السامية بعضها ببعض ومراجعة الأصول اللغويـة للمصطلحات الدينية عند جميع الشعوب السامية للتوصل منها الى الأسس العميقة المدفونة التي أقيم عليها بنيان ديانـة الساميين . ثم لا بد أيضاً من دراسة المؤثرات الخارجيـة التي أثرت في الساميين من عوامل طبيعية ومن عوامل أخرى غير طبيعية ومن الأثر الثقافي الذي كان لغير الساميين في الساميين .

ويتبين من دراسة الأساطير السامية وجود شكل من أشكال التوحيد Henoteism عند القبائل السامية البدائية ؛ يمثل في اعتقاد القبيلة بوجود إلـه لها واحد أعلى ، غير ان هذا لا يعني نفي اعتقادها بتعدد الآلهة . فإننا نرى ان تلك القبائل كانت تعتقد ، في الوقت نفسه، بالأرواح كأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون ، وفي ضمنه الانسان ، وبآلهة مساعدة للإلـه الكبير[1] .

والديانات السامية ، وإن كانت في الأصل من ديانة قديمة،قد تطورت وتغيرت بعوامل عديدة من العوامل التي تؤثر في كل المجتمعات البشرية فتحدث فيها انقلاباً في التفكير وفي طراز الحياة . ومن هذه العوامل المؤثرات الخارجية والمحيط الجديد. وسنجد ان ديانة العرب الجنوبيين ، وإن كانت في الأصل من تلك الديانة السامية

---

١ Ency. Religi., II, p. 283.

الأصلية فيها مثل (ال) (ايل) وأمثال ذلك ، قد غيرت في ديانتها،وبدّلت في تصوراتها للآلهة ، حتى صارت في بعض معتقداتها على نقيض مع معتقدات الساميين الشماليين .

وفي الدين معبود يعبد هو الله ، أو جملة آلهة ، أو قوى خارقة تلعب في مقدرات الانسان.وعبدة يتعبدون له أو لها . فهم عبّاده أو عبّادها . و (العبادة) الطاعة ، وأداء الواجبات المفروضة على الانسان تجاه الله[1] ، أو الآلهة .

والرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم ، أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الاسلام ، وأن تفكيرهم في ذلك تفكير منحطّ لا يتجاوز تفكير القبائل البدائية . وهو رأي خاطىء ، يفنده القرآن الكريم . وإذا كان ما يقوله صحيحاً بالقياس الى السواد والأعراب ، فإنه لا يصح أن يكون حكماً عاماً على الكلّ ، ولا سيما على المتحضرين وعلى من كان لهم اتصال بالعالم الخارجي .

وتأريخ أديان العرب قبل الإسلام ، فصل مهم جداً من فصول تأريخ العرب عامة قبل الاسلام وبعدها ؛ بدونه لا يمكن فهم عقلية القوم الذين نزل الوحي بينهم وطريقة معرفة تفكيرهم ووجهة نظرهم الى الخالق والكون ثم الأسباب التي دعت الى نزول الوحي وظهور الإسلام . وبدون دراسة أديان الجاهليين ومقالاتهم في الخالق والخلق ، لا نتمكن أبداً من فهم رسالة الإسلام فهماً صحيحاً . بل ان هذه الدراسة أيضاً فصل مهم جداً لفهم كثير من الأمور الواردة في التوراة والانجيل إذ كان العرب قوماً من هذه الأقوام التي كانت لها صلات قديمة بأرض الوحي التي نزل بها الكتاب المقدس بعهديه ، وعضو فعال في هذه المجموعة المسماة بالشعوب الساميّة . ما نعثر عليه من جديد في الناحية الدينية،يكشف عن غوامض عديدة من غوامض العهدين،فجدير بالعلماء وبنا إذن الانصراف الى البحث والاستقصاء للعثور على المصطلحات المفقودة من هذا الفعل .

وسنرى في الفصول القادمة أسماء رجال كان لهم شأن وخطر في الحياة الدينية للجاهليين ، وقد زعم أهل الأخبار ان بعضاً منهم كان من الأنبياء الذين جاءوا الى قومهم برسالة . وان بعضاً آخر ، كان من المصلحين الهادين ، من أصحاب

---

١ تاج العروس (٢/٤١٠ وما بعدها) .

العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم . وان رجالاً منهم كانوا على الحنيفية ، يريدون بها ديانة التوحيد ، وان آخرين بشّروا بالوثنية، وأشاعوها بين العرب ، لما كان لهم من مكانة ونفوذ . وان رجالاً من الجاهليين كانوا على ملة اليهودية ودين المسيح . وان قوماً من أهل الجاهلية كانوا على عبادة (الله) و (الرحمان) ، وكل المذكورين كانوا ممن مهد الجادة اذن لظهور الاسلام .

وقد أدى ظهور الاسلام الى ظهور مصطلحات جديدة وموت مصطلحات قديمة، وصارت هذه المصطلحات من علائم الوثنية . ولا بد لنا للوقوف على صورة أوضح للحياة الدينية عند الجاهليين من وجوب دراسة الألفاظ الجاهلية ذات المعاني الدينية بجمعها وتبويبها وتثبيت معانيها ، فبهذه الدراسة نستطيع الوقوف على مبلغ تغلغل الحياة الدينية في نفوس الجاهليين ، ومعرفة مدى تعمقهم في الدين وفهمهم له .

ومن الدراسات التي يجب أن تنال منا الرعاية والعناية لمعرفة الحياة الدينية وتطورها عند الجاهليين معرفة صحيحة ، دراسة المصطلحات الدينية بحسب اللهجات العربية، وأماكن تلك اللهجات ، وأسماء الأصنام أو الأوثان ، ومعتقدات سكان تلك الأرضين في هذه الأيام ، فإن دراسة مثل هذه تفيدنا فائدة كبيرة في معرفة أسس الحياة الدينية عند الجاهليين ، وفي معرفة اختلاف العرب أو اتفاقهم في العقائد وفي الأمور الدينية ، ومعرفة العوامل والأسباب التي أدت الى ذلك ، ثم معرفة المؤثرات الخارجية في الحياة الدينية للجاهليين . وبتثبيت هذه وأمثالها وبمقارنتها بأسماء أصنام الأقوام المجاورة وآلهتهم ومصطلحاتهم ، نستطيع فهم كثير من الأمور الغامضة من الحياة الدينية عند العرب وعند تلك الأقوام ، وفهم الاحتكاك العقلي والصلات الروحية التي كانت بين تلك الشعوب قبل الاسلام .

إن الأخباريين عفا الله عنهم ، لم يعنوا بتنسيق هذا الذي توصلوا اليه ورووه لنا من آراء الجاهليين في الدين . فرووا روايات مختلفة متناقضة أو مقتضبة اقتضاباً مخلاً وجاءوا بأمور تثبت ان أولئك الأخباريين لم يكونوا على مستوى عالٍ من النقد والتعمق في دراسة الأخبار ، وانهم كانوا يروون أخبارهم بالمعنى المفهوم من الأخبار ، يأخذون ما يقال لهم فيروونه على نحو ما سمعوه وإن كان فيما يروونه ما يخالف المنطق والفهق السليم . والاستسلام للروايات داء يذهب بالفائدة منها ، ويعود على المؤرخ بأفدح الأضرار . ولهذا نجد أنفسنا في موضوع أديان العرب

قبـــل الاسلام في زوبعة عاتية وعاصفة مليئة بالرمال نتخبط فيهـــا للحصول على مخرج نخرج منه ، وليس لنا إلا الأمل بالخروج من هذه العاصفة العاتية المتعبة في وقت ما .

وهذا الذي أورده أهل الأخبار عن أهل الجاهلية على ما فيه من تناقض وتضارب واقتضاب ، هو كما رأينا مادتنا الوحيدة عن الحياة الدينية عند عرب الجاهلية قبيل الاسلام وعند ظهوره ، ولا سيما بالنسبة الى عرب الحجاز وعرب الشأم والعراق . وهناك روايات لم نستفد منها حتى الآن ، لصعوبة التوصل اليها ، لا لكونهـا في بطون المخطوطات ، ولهذا يصعب الحصول عليها . فإن الكثير منهـــا قد طبع ، وهو في متناول الأيدي ، إنمـــا صعوبتها في كونها في كتب مطبوعة طبعاً على الطريقة القديمة بلا نظام ولا ترتيب ولا تبويب فنيّ ولا فهرست لما في الكتـــاب المطبوع من مواد ومن أسماء أشخاص أو أصنام أو أوثان أو ما شابه ذلك . وليس أمام المؤرخ في هذه الحالة إلاّ أن يقرأ تلك الكتب من بسملتهـا حتى منتهاها ، ليحصل منها في النهاية على كلمة أو كلمتين أو خبر أو أخبـــار ، ولكن كيف يتمكن المؤرخ من قراءة كتب ضخمة كتفسير الطبري وكتب التفـــاسير الأخرى وشروح الحديث وكتب التواريخ والطبقات وبقية الكتب إذا كان الكتـاب يتألف من أكثر من عشرة أجزاء ، وهي كلها بلا فهرست للأعلام ولا لما في الكتاب من فوائد ومواد . لا يتمكن المؤرخ بالطبع من قراءة كلّ هذه الموارد المذكورة مع تساوي عمره بسائر أعمار الناس ، ولو مدّ الله في عمره وصيّره إنساناً آخر ذا عمر طويل من أعمار الأناس الذين أرخهم (السجستاني) في كتاب المعمرين ، لتمكن من الإحاطة ببعض تلك الموارد على الأقل . غير أن عمر المؤرخ ويا للأسف مثل أعمار سائر النـــاس ، قصير محدود ، فليس في إمكانه الإحاطة بما ورد في هذه الكتب الواسعة المجهولة ، على ظهورها في عالم الوجود ووجودهـا في خزانة كتب المؤرخ وفي يد أي شخص يريد الحصول عليها ، لأن الموضوع ليس موضوع وجود كاتب مطبوع أو مخطوط ، إنما هو اكتشاف ما في المطبوع أو المخطـوط من آراء وأخبار وأعلام .

ما دام الوضع على هذا الحال وما دامت أكثر كتبنا غير مفهرسة ولا منسقة ، فليس في استطاعة المؤرخ أن يأتي بشيء كثير يشفي غليـــل من يريد المزيد من

المعرفة عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام . وهذا أمر يؤسف له بالطبع كثيراً . وسيأتي بعدنا من يضيفون الى هذا العلم البسيط الذي توصلنا اليه علماً كثيراً ، ثم يتوصل من بعدهم الى أكثر من ذلك ولا شك . ومن يدري ؟ فلعلّهم يتوصلون الى كتابات جاهلية تغنيهم عن كل هذا الذي أخذناه من موارد إسلامية كتبت بعد الجاهلية بعشرات السنين . وليس لنا ، وسنكون بالطبع من الماضين ، إلاّ أن ندعو لمن يأتي بعدنا بالتوفيق والنجاح التام .

obeikandl.com

الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب : كـان منهم من آمن بالله ، وآمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله ، وتعبد للأصنام ، اذ زعموا أنهـا تقربهم اليه . وكان منهم من تعبد للأصنام ، زاعمين أنها تنفع وتضر ، وأنهـا هي الضارة النافعة [1] . وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد بشيء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الانسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء ممـا جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار ، أن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين ابراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد . الدين الذي بعث بأمر الله من جديد ، فتجسد وتمثل في الاسلام . وكان العرب مثل غيرهم ، قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغووا بعبادتهم الأصنام . حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه من العرب، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب : (عمرو بن لحي) .

وذهب (رينان) Renan الى ان العرب هم مثـل سائر الساميين الآخرين

---

١ أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النجيرمي الكاتب ، أيمان العرب في الجاهلية ، (تحقيق محب الدين الخطيب) ، (القاهرة ١٣٨٢) « ص ١٢ وما بعدها » .

موحدون بطبعهم ، وان ديانتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[1] .

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبّد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لهجاتهم ، فادعى ان الشعوب السامية كانت تتعبد لإلـه واحد هو (ال) (ايل) الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل ، غير ان أصلها كلها هو إلـه واحد ، هو الإلـه (ال) (ايل)[2] .

و (التوحيد) الايمان بإلـه واحد أحد لا شريك له ، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير . لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام[3]. ويقال للديانة التي تدين بالتوحيد : Monotheism في اللغات الأوروبية،من أصل يوناني هو Monos ، بمعنى (واحد)، و Theos بمعنى (إلـه) ، لأنها تقول بوجود إلـه واحد[4] . ويتمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الاسلام .

والشرك في تفسير العلماء الاسلاميين ، ان يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته ، والايمان بالله وبغيره ، فصاروا بذلك مشركين[5] . ومن الشرك ان تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد[6] . ويقال له Polytheismus = Polytheism في اللغات الأوروبية . من أصل يوناني هو Polys ، ومعناها كثرة وتعداد ، و Theos بمعنى (إلـه) . فيكون المعنى : القول بتعدد الآلهة ، أي الشرك . نقيض القول بالتوحيد Monotheismus . فالشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد . ويختلف عن عقيدة الـ Polydoemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، وبوجود أثر لها في حياة الانسان، كما يختلف

---

١ Ency. Religi., Vol. II, p. 383

٢ E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855, Vol. I, Chapt I, p. 1. ff.

٣ تاج العروس (٢/٥٢٦) ، (وحد) .

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

٥ تاج العروس (٧/١٤٨) ، (شرك) .

٦ اللسان (١٠/٤٤٩ وما بعدها) ، (شرك) .

عن القائلين بمبدأ (الحلول) Pantheism من حيث حلول الإلـه في الخلق والخلق في الإلـه[1].

وقد ذهب أهل الأخبار الى أن العرب الأولى كانت عـلى ملة ابراهيم ، من الايمان بإلـه واحد أحد ، اعتقدت به ، وحجّت الى بيته ، وعظمت حرمـه ، وحرمة الأشهر الحرم ، بقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام اليه[2] .

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى ان عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها الى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القـديم الكل) أو (الأب الأكبر) الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إلـه واحد . وتوصل الى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيـد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليهـا في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم[3] .

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الانسان فأبعده عن عبادة الله[4] .

اننا لا نستطيع ان نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الاسلام استناداً الى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالنصوص التي وصلت الينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلا ما ورد في النصوص العربيـة الجنوبية المتأخرة من عبـادة الإلـه (ذ سموى) (ذو سموى) ، أي صاحب السماء ، بمعنى إلـه السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ النجيرمي ، أيمان العرب (١٢ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٦) .

٣ Schmidt, S. 637, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

٤ Ency. Religi., Vol. 7, p. 113.

اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لها أتباعاً هناك ، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول انها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إلـه واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

وقد ذكرت جملة (ذ سموى) في نص مع الإلـه (تالب ريمم) (تالب ريام) ، رب قبيلة (همدان) . ويدل ذكر اسم هذا الإلـه مع اسم إلـه آخر على ان عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وانها كانت في بدء تكوينها ، فلما اختمرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ، مما يشير الى حدوث هذا التطور في العقائد ، والى ظهور عقيدة التوحيد والايمان بإلـه السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إلـه السماء رب السماء والأرض[1] .

ولم يكن (ذ سموى) ، (ذ سمى اله) ، (ذو السماء إلـه) أي (صاحب السماء) ، أو (إلـه السماء) ، أو (رب السماء) ، إلـه جماعه معينة أو إلـه قبيلة مخصوصة ، بل هو إلـه ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (ربّ السماء) ، فهو إلـه واحد مقره السماء . ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية ، فظهرت جماعة تأثرت بالديانتين تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (رب السماء)[2] .

وأما عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، فهي عبادة توحيد ، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد . وقد وردت كلمة (رحمنن) ، أي (الرحمن) ، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (ابرهة) ، وردت في نصوص عربية جنوبية أخرى وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز[3] . وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن ، ولا شك ، باتصالهم باليمن وباليهود . ولعلهم استخدموا الكلمة في

---

١ Handbuch, I, S. 102.

٢ Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fax. I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.

٣ Glaser 554, 406 = 410, Halevy 63, CIH, Pars 4, Tomus, I, Capt. I, No. 6, p. 15 - 9, II, 537 - 543, p. 257 - 300, CIH, 6, 45, 537, 538, 539, 541, 542, 543, MM, Altsüd., 19, Rep. Epig., 3904, 4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله . وإن ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن اللفظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية [1] .

وقد جاء في النص اليهودي المذكور : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإلـه اسرائيل رب يهود) . وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرتهم عن الله من اليهودية، وان فكرة التوحيد هذه انما ظهرت بتأثير اليهودية التي دخلت الى اليمن . غير ان من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي . رأى ان افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم اشارته بعد ذلك الى إلـه يهود ، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود الى سنة (٤٦٨) للميلاد[2] . كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود[3] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول ، وان اللفظة عبرانية الأصل ، وأما (الرحيم) فعربية . وذكروا ان (الرحمن) اسم مخصص بالله ، لا يجوز أن يسمى به غيره[4] . وقد أنشدوا للشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها [5]

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن . ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهوي :

---

١ Handbuch, I, S. 248, Halevy, Revue des Etudes Juives, 1891, Vol. 22, pp. 125 - 129, 281, 23, p. 304, Margoliouth, The Relations, p. 67.

٢ CIS, 7.

٣ Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

٤ تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٦)، تفسير الطبري (١/٤٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢١) .

٥ تفسير الطبري (١/٤٤) ، وورد :
لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها
الاشتقاق (ص ٣٧) .

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1]

فإن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة (الرحمن) . ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن ، وذكروا أن (عامر بن عتوارة) سمى ابنه (عبد الرحمن)[2] .

وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب الى (حاتم الطائي) هو :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المتألهة ، ويعده البعض من النصارى و (الرحمن) نعت من نعوت الله في النصرانية ، من أصل (رحمونو) ، Rahmono[3] ، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى النصراني ؟

« وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولهذا قال كفّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعلي: اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة »[4] .

وذكر أن المشركين سمعوا النبيّ يدعو ربه ، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى . وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي باليمامة. وكان باليمامة رجل يقال له الرحمان[5] .

---

١ تفسير الطبري (١/٤٤) ، (سلامة بن جندب الطهوي) ،
عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
تفسير ابن كثير (١/٢١) ،
٢ الاشتقاق (ص ٣٧) .
٣ غرائب اللغة (١٨٢) .
٤ تفسير ابن كثير (١/٢١) .
٥ تفسير الطبري (١٥/١٢١) ، سورة الاسراء ، الآية ١١٠ ، روح المعاني (١٥/١٧٦) .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الـذي زعموا انه كان يُعرف بـ (رحمان اليمامة) . لكنهم ذكروا ان (مسيلمة الكذاب) ، كـان يقال له رحمان اليمامة [1] . فهل عنوا بـ (رحمان اليمامة) مسيلمة نفسه ، أم شخصاً آخـر كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله ؟

وورد ان قريشاً قالوا للرسول : « انا قد بلغنا انك انما يعلمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً » . فنزل فيهم قوله : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إلـه إلا هو عليه توكلت واليه متاب »[2] . وذكر بعض أهـل الأخبار : كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين ، وذلك قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله[3] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ان اليهود قالوا : (ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير . يعنون الرحمان ، فنزلت الآية)[4] .

ويرى المستشرقون ان عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، انما ظهرت بين الجاهليين بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم[5] .

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيس عيلان) ، كانت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان »[6] وأن تلبية عك والأشعرين ، كانت :

نحج للرحمان بيتـاً عجباً مستتراً مغيبـاً محجباً [7]

وفي التلبيتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإلـه واحد ، هو الرحمان .

---

١ اللسان (١٢/٢٣١) ، (رحم) ، تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) .
٢ سورة الرعد ، الآية ٣٠ ، الروض الأنف (١/٢٠٠) ، سيرة ابن هشام (١/٢٠٠) (حاشية على الروض) ، تفسير الطبري (١٣/١٠١) .
٣ الروض الأنف (١/٢٠٠) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٤٣) .
٥ G. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 66, 1953, p. 314, Ryckmans 330. b., CIH 541, G. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1946, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Preislamique, 275.
٦ اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٧ اليعقوبي (١/٢٢٦) .

ولم ترد لفظة (الرحمان) إلاّ مفردة ، فليس لها جمع ؛ لأنها تعبير عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة (رب) ، التي تؤدي معنى (إلَه) ، وهي تعبير عن اعتقاد ، لا اسم علم لإلَه ، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبيراً عن تعدد الآلهة ، وهو الشرك . وقد كان الجاهليون يقولون : ربّي وربك وربنا وأربابنا ، كما يقولون إلهي وإلاهك وآلهتنا [1] .

وقد تكون كلمة (ه رحم) (هارحيم) ، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية[2] وفي النصوص السبئية اسم إلَه[3] ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الاسلام .

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأي رجال الدين منهم ، ان الناس كانوا أمة واحدة في الدين ، كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[4] . أما غيرهم من العلماء الذين يستندون الى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع،فيرون ان عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة الى ظهور الوثنية والشرك. ظهرت بعد أن توسعت مدارك الانسان ، فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع،وصار يقتصد في الشرك ، الى أن اهتدى الى عبادة إلَه واحد .

ظهور الشرك :

هناك عدة عوامل دعت الى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسّية Characteristics ، وعوامل

---

١ هناك ربك ما أعطاك من حسن وحيثمايك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (١٢٣) .

٢ Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, Paris, 1868 - 1877, p. 142, No. 402, Dussuad, voyage Archéologique au Safa, Paris, 1901, No. 258, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

٣ CIS, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, S. 246.

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم . ولا يعني هذا انها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، انما يعني ان ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

وإنّا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلـه تختلف باختلاف ثقافتهـا ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إلـه خـاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره ، ويـدافع عنها في الحروب والملمات ، ويعطيها النصر . كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها ، وكوّنت حلفاً وصداقـة متينة بينها . أما إذا تحاربت هذه القبائل او القرى او المدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم الى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفـة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبَدَتها . وقد يتأثر الغالبون بعبـادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلـوبين الى آلهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم ادب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة . ويكون إلـه القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إلـه الحكومـة الكبير . أما الآلهة الأخرى ، فتكون دونه في المنزلة ، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإلـه الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال الى اقتباس آلهة المجاورين واضافتها الى مجموعـة الآلهة عند ذلك الشعب ، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فيهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، كما ذكرت ، فيتغير العدد بذلك .

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك . كان في إمكانهم اقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة ، أو بإبعـاد

إلَه أو آلهة عن عبادة قومهم ، فيزيد أو ينقص بذلك عـــدد الآلهة . وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيّرون عبادة أتباعهم بإدخال عبادة إلَه جديد ، يأخذونه من زيارتهم لبلـــد غريب ، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد ، فيشار عليـــه بالتعبد وبالتقرب لإلَه ذلك البلد أو لأحد آلهته ، فيصادف أن يشفى ، فيظن أنه شفي ببركة ذلك الإلَه وبقدرته وقوته ، فيتقرب له ويتعبد له ، فإذا أعاد حمل عبادته الى أتباعه ، فيعبد عندهم . ويضاف عـــلى آلهتهم ، ويصير أحدهم وقد يطغى اسمه عليها ، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس. وتأريخ الجاهلية مليء بحوادث تبديـل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعقائدهم ولآلهتهم ، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة . وقد كان اسلام قبائل برمتها ، بسبب دخول سيدها في الاسلام ، فالناس تبع لساداتهم ولقادتهم ، و « الناس عـلى دين ملوكهم » كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب .

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها ، فودّ ورضى والمقـه وذات حميم وأمثالها ، هي صفات في الأصل ، مضى عليها الزمـن ، فاستعملت استعمال الأسماء الأعلام . وظن أنها آلهة قائمة بذاتها . فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة ، فزاد بذلك عدد الآلهة ، واعتبرت الأسماء الكثيرة مـن سماء الإفراط في الشرك . بينما هي صفـــات لإلَه ، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة ، هي الثالوث الكواكبي المقدس الذي تعبدوا له .

ولا بد لنا من الإشارة الى اصطلاح أطلقـــه (ماكس مولر) Max Müler على مرحلة من العبـــادة هي بين بين ، لا هي توحيد Monotheism ولا هي شرك Polytheism ، بل هي مرحلة تعبد فيها الانسان على رأى هذا الباحث الى إلَه واحد هو إلَه القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[1] . وهـذا الاصطلاح هو Henotheismus . وقد رأى (فلايدلر) Pfleidler أن الساميـين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) الى ذلك ، بل كانوا يدينون بإلَه قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاسرائيليين[2] .

---

١ Max Müller, Varlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

٢ Ency. Religi., 10, p. 811, Pfleidler, Philosophy of Religion, London, 1885 - 1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات الى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك في قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)[1] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للكسر[2] . وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[3] . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء لله وبناته[4] . وفي آيات أخرى ان من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله[5] . والآلهة هنا شيء عام . فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم في عبادة غير الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)[6] . ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى ان فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وانه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى[7] .

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها (شركاء) جمع (شريك) ، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله[8] . و (أنداد) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحب الله)[9] (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم الى النار)[10] . و (أولياء)

---

١ الاعراف ، الآية ١٩١ وما بعدها ، يونس ، الآية ١٨ .
٢ تفسير الجلالين (١/١٣٩) ، « طبعة المطبعة المليجية » .
٣ الانعام ، الآية ١٠٠ ، الجلالين (١/١١٦) .
٤ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٥ الانبياء ، الآية ٢٤ .
٦ الزمر ، الآية ٣ ، الجلالين (٢/١٣٣) .
٧ الزمر ، الآية ٣ ، الانعام ، الآية ١٤٨ ، النحل ، الآية ٣٥ .
٨ الانعام ، الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) ، حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم .
٩ البقرة ، الآية ١٦٥ .
١٠ ابراهيم ، الآية ٣٠ .

و (وليّ) و (ولياً)[1] و (شفعاء) و (شهداء)[2] . فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الاسلام . وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون انها تستحق العبادة ، وانها في مقابل الله في العرف الاسلامي ، أو انها شركاء في ادارة الكون أو انها مساعدة لله .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . فهو يشمل أشياء عديدة . منها عبادة الكواكب ، أي عبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية ، وبمعنى آخر عبادة القوى الخفية ، أو القوى الروحية ، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار ، باعتبار انها تشفع للانسان عند الآلهة ، وعبادة الانسان والحيوان ، الى غير ذلك من عبادات .

ومن العبادات التي يجب أن يشار اليها عبادات اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة ، تمثل عقائد قديمة ، ولبعضها أتباع أحياء يرزقون . ولبعض منها آثار ومظاهر ، دخلت في الأديان الباقية ، وصبغت بصبغتها ، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسخت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الانسان أن يتخلص منها ، فبقيت راسخة تحت مسميات جديدة. ومن تلك العقائد : الـ Shamanism ، و Tatemism ، و Fetishism ، و Ancestor - worship ، و Animism ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب[3] .

أما الـ (شمانية) ، فقد أخذت من كلمة (شمن) Shaman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان) ، أو من كلمة Shemen التي معناها صنم أو معبد، أو من أصل آخر . ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة Polytheism ، أو بعبادة الأرواح Polydomonism مع عبادة الطبيعة Nature - worship لاعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها . ويعتقد في هذا الدين أيضاً بوجود إلـه أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة ، وبتأثير السحر[4] .

---

١ راجع فهارس القرآن الكريم ، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .
٢ فتح الرحمن (ص ٢٤٠) .
٣ A.A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1938, p. 67.
٤ Ency. Religi., II, p. 441.

ويستعين الـ (شمن) ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيـــدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بـــين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به . وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح. فللسحر في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم الـ (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب[1] .

وأما (الطوطمية) ، فقد تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب[2]. وقد بينت عقيدتها في (الطوطم) ، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي) ، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة ، يرتبط أفراده برباط ديني مقدس، هو رباط (الطوطم) ، رمز الجماعة .

وأما الـ Fetishism ، من أصل Factitus اللاتيني ، بمعنى السحر ، أي القوة المؤثرة الخفية Magic ، فللباحثين في تأريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها[3] . والرأي الغالب الشائع بينهم انها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ؛ وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلازمها ملازمة مؤقتة أو دائمة . ويحمل الـ Fetish (البد) لجلب السعد إلى صاحبه . وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylor بمثابة (إلـه البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوئها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلـــماء في ظهور هذه العقيدة[4] .

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على انها نفسها ذات قوة فعالة خفية ، وانها الرمز أو الصورة للإلـه المنسوب ذلك الشيء اليـه ، بل هم يرون ان تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقـــرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الانسان . وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة

---

١ Ency. Religi., Vol. 11, p. 441.

٢ (ص ٥١٨ وما بعدها) .

٣ Ency. Religi., Vol. V, p. 894.

٤ Ency. Brita., Vol. 9, p. 202, Taylor, Primitive Culture, II, p. 143, Waitny, Anthropologie der Naturvölker, II, S. 174.

مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الانسان ، ومستها أو لم تمسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي، لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة ، لا يتقرب اليها نفسها ، بل يتقرب الى الروح التي تحل فيها. فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحل الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه .

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship ، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء ، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين ، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer [1] . وأما الأسباب التي دعت البشر الى هذه العبادة ، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي اليها كما كانت تفعل في حياتها وردّ أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء . فتمجيد الأبطال والخوف منهم ، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف على رأي . وهناك من رأى ان تمجيد الأبطال والاشادة بذكرهم ، هو الذي أوجد هذه العبادة ، ومنهم من نسبها الى الخوف منهم حسب [2] .

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساس هذه العقيدة هو الايمان ببقاء الروح ، روح الميت ، وان بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم . ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لها . فالميت وإن كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب ، إلا انه يسمع ويعي ، فروحه حية وبإمكانه النفع والضر . وهذه العقيدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها ، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتل أو سارق . ولهذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها الى الأرواح وللاستفسار منها . فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف بإسم Thesprotia ، وموضع آخر عرف بإسم Phigalia في (أركاديا) Arcadia [3] . وكان في ايطاليا موضع للتنبؤ يقع على بحيرة

---

١ Ency. Relig., I, pp. 425, 427.
٢ Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.
٣ Herodothus, V, 92, Pausanus, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) Avernus [1] . وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه [2] .

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام Idolatry . ويلاحظ ان عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من (الطوطمية) [3] .

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية ، كما ان لها أثراً مهماً في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء [4] .

ومعارفنا عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة ، ويمكن أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجدَ ومواضع للصلاة ان الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون اليها . ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس [5] . ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور اتخذت مزارات، كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها ، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به ، كالذي كان من

---

١ Ency. Religi., I, p. 428.

٢ Ency. Religi., Vol. I, p. 430, Crooke, Popular Religion, I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74 ff.

٣ Ency. Religi., I, p. 536. Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193,

٤ Ency. Religi., I, p. 432.

٥ Hastings, p. 300, Ency. Religi., 7, p. 325, «Ancestor - Worship ».

أمر ضريح (تميم بن مرّ) ، جدّ (تميم) ، وكالذي ذكروه من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل ، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل الى صنم . ونجد في كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها . وقد أشارت الى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد ، تقربوا اليها ، لذلك نهي أهل الاسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور[1] ، كما نهى عن تكليل القبور وتجصيصها ، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلّة ، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور[2] .

وأما الـ Animism ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلّها Nature ، ولذلك يؤله كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون في جسم ، وهو (النفس) Saul ، ومنها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit[3] .

ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry ، وعبادة الأرواح Spiritism ، وعبادة الأرواح التي تحلّ في المظاهر الطبيعية ، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism[4] .

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى ، وهي موضع جدل بين العلماء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واسترالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات. وإذ كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور . وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر ، بل ولا في المستقبل

---

١ صحيح مسلم (٢/٦٦) ، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد) .

٢ اللسان (١١/٥٩٥) ، (كلل) .

٣ Schmidt, S. 24.

٤ Ency. Religi., I, p. 535.

القريب ، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان ، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع ان نقول إجمالاً ان من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بأثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح ، تفيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما ان للاخباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر وغير ذلك ، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيّمة لمن يريد التبسط في دراسة هذه الأمور .

عبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء ان عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهة ، وإن تعددت وكثرت ، إلا انها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي ، هو : الشمس والقمر والزهرة . وهو رمز لعائلة صغيرة ، تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هي الشمس ، ومن ابن هو الزهرة . وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة ، هي في الواقع نعوت لها ، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الاسلام .

وقد لفت الجرمان السماويان : الشمس والقمر ، نظر الانسان اليهما بصورة خاصة ، لما أدرك فيهما من أثر في الانسان وفي طباعه وسحنه وعمله ، وفي الجو الذي يعيش فيه ، وفي حياة زرعه وحيوانه ، وفي تكوين ليله ونهاره والفصول التي تمر عليه . فتوصل بعقله يوم ذاك إلى انه نفسه ، وكل ما يحيط به ، من فعل هذين الجرمين ومن أثر أجرام أخرى أقل شأناً منهما عليه . فنسب اليهما نموه وتكوينه وبرءه وسقمه ، وحياة زرعه وماشيته ، ورسخ في عقله انه إن تقرب وتعبد لهما ، ولبقية الأجرام ، فإنه سيرضيها ، وستغدق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البنين ، فصار من ثم عابد كوكب .

ونجد في حكاية كيفية اهتداء (ابراهيم) إلى عبادة إلّه واحد ، الواردة في سورة الأنعام ، تفسيراً لسبب تعبد الانسان للأجرام السماوية . (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري

ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)[1] . فقد لفت ذلك الكوكب نظر ابراهيم ، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب ، فتعبد له ، واتخذه رباً ، فلما أفل ، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه ، تركه ، وتعبد للكوكب الآخر ، وهو القمر . فلما أفل ، ورأى الشمس بازغة ، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الانسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوّه ومحيطه ، ترك القمر وتعبّد للشمس ، فيكون قد تعبّد لثلاثة كواكب ، قبل أن يهتدي إلى التوحيد ، هي القمر والشمس ، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين[2] .

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر الى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ففيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون»[3].

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي بهرت نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس والقمر . والزهرة ، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس الى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب ، ولون باهر خلاب ، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين .

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث ، وصار هو الإلـه المقدم فيه ، وكبير الآلهة . وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

---

١ الانعام ، الآية ٧٥ وما بعدها .
٢ تفسير الطبري (١٥٨/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥/٧) .
٣ فصلت ، الآية ٣٧ .

التغليب[1] ، وعلى الذهاب الى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين ، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين[2] .

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقديم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب ، وسميراً لرجال القوافل من التجّار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة ، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة ، فتشل الحركة في النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ . إنها ذات حميم حقاً ، فلا عجب إذا ما دعيت بـ (ذت حمم) ، (ذات حميم) ، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين . ولذلك ، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس، وفضلوه عليها . واذا كانت الشمس مصدراً لنموّ النباتات نموّاً سريعاً في شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهّاجة المحرقة تقف نموّ أكثر المزروعات في صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها واختفاء الورد والزهر في هذا الموسم ، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقلية التي كوّنت تلك الأساطير[3] .

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر فيها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالقياس الى البابليين . ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين[4] .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ ، و (سن) (سين) ، وشهر . وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

---

١ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion.

٢ Handbuch I, S. 213.

٣ Handbuch. I, S. 213, Die Altarbische Mondreligion, S. 49, Die Sabaische Gott Ilmukah, S. I.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 85.

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب . ويلاحظ ان الصور التي ترمز إلى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومتقاربة في الشكل ، مما يدل على ان الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد . أما كلمة (قمر) ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متأخرة [1] .

ويلاحظ ان النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر بإسمه دائماً في النصوص، وإنما تشير اليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر ان ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر ، فلا يخاطب الانسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس ، أي بإسمه المعتاد ، لأنه الرب والإلـه ، وهو فوق الانسان . وهو إذا خاطبه بإسمه ، فإنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتحبب إلى الرب ، فهو نوع من أدب التقرب إلى الآلهة .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم ابم) ، وبـ (ابم ودم) ، أي (وَدٌّ أبٌ) ، و (أب وَدٌّ) ، ولا غرابة في ذلك . فإذا كان القمر أباً للآلهة ، فلِمَ لا يكون إذن أباً للانسان عبده ، وهو في حاجة شديدة اليه ، حاجة العبد إلى سيده والولد إلى والده ؟

ودعوه أيضاً بـ (عم) ، ولِمَ لا ؟ أليس العم في مقام الأب ؟ ثم إنّ العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلههم القمر : يا عم ! ليرحمهم وليبارك فيهم ، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً واشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب [2] .

والأب عند العرب كلّ من كان سبباً في إيجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب . ولذلك سمّي مع الأب الأبوين [3] .

وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ ، أو جمل (ودم

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 214.

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ٤ وما بعدها) ، مادة أبا في كتاب الالف .

ابم) ، أو (ابم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ودّ) محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحبّ والبركة والخيرات .

ونعت القمر بـ (كهلن) ، أي (الكهل) في نصوص المسند ، وفي نصوص عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية . وتعني لفظة (كهلن) ، القدير والمقتدر والعزيز[1] . وهي من نعوت هذا الإلـه .

ونعت بنعوت أخرى ، مثل (حكم) ، أي (حكيم) و (حاكم) و (صدق) أي (صديق) و (صادق) ، و (علم) ، أي (عليم) .و (عالم) و (علام)، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل ، وهي من نوع (الأسماء الحسنى) لله عند المسلمين . ترينا الإلـه إلهاً قديراً قوياً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به . يحبّهم حبّ الأب الشفيق لأبنائه الأعزاء .

والإلـه (القمر) ، هو **الإلـه** (المقه) عند السبئيين . وهو إلـه سبأ الكبير. وهو (عم) عند القتبانيين . كما سأتحدث عن ذلك في أصنام الكتابات ، وهو ودّ عند المعينين و (سن) (سين) ، عند الحضارمة .

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر،ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب الساميّة . وقد نص على اسمه في الكتابات ، إذ قيل له (ثور)[2] .

وقد ذكر (الألوسي) ، ان عبدة (القمر) « اتخذوا له صنماً على شكل عجل ، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة في كل شهر ، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه »[3] . ولم يشر الى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك . فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم .

---

١ Halevy 237, Chrestoma. 91, 97, Grundriss, I, S. 136, Glaser, 284.

٢ Glaser 1546, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

٣ بلوغ الارب (٢/٢١٦) .

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحية) تمثل الإلـه القمر ، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر[1] .

والشمس ، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت اليها أنظار البشر بتأثيرها في الانسان وفي الزرع والماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها ، فعبدها وألّهها ، وشاد لها المعابد ، وقدّم لها القرابين . وهـي عبادة فيها تطور كبير ورقي في التفكـير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للأحجار والنباتات والأرواح .

وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، في زمن لا نستطيع تحديده ، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب . وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ (بيت شمس) Beth Shemesh[2] .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلهة ، أمـا في كتابات تدمر فهي مذكر ، ولذلك فهي إلـه ذكر عند التدمريين . ويرى (ولهوزن) Wellhousen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3] . وكانت عبادة الشمس شائعة بـين التدمريين . وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدلّ على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس ، هي الإلـه الأكبر عند النبط . ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي . والإلـه الأكبر فيها هو (اللات) . فلعل (سترابو) قصد بـ Helios اللات . وإذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس .

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ (عبد شمس). وقد ذكر الأخبـاريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد

---

١ Arabien, S. 269.

٢ Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 125. ff.

٣ Reste, S. 60 Waddington 2569, 2587, Vogue, Palmy., 2, 8, 19, 75, 116, 125, Reste, S. 60.

الشمس ، فدعي بـ (عبد شمس)[1] . وقد ذكر ان بني تميم تعبدت له . وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو أدّ كلها : ضَبّة ، وتميم ، وعدي ، وعُطُل : وثور ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن حروة ابن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[2] .

وذكر أن (عبد شمس)، اسم أضيف الى شمس السماء ، لأنهم كانوا يعبدونها. والنسبة (عبشمي)[3] .

وكانت العرب تسمّي الشمس (الإلهة) تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروّحنا من اللعباء قصراً فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن ميّة فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا[4]

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام .

وعرفت الشمس بـ (ذُكاء)[5] عند الجاهليين. وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة ، وتصوروه تارة حاجباً لها . فقيل حاجب الشمس . وقيل يقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها[6] .

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى. ذكر (الأسقع) الليثي ، انه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى[7] . وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

---

١ منتخبات (ص ٥٧) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ تاج العروس (٤/١٧٢) ، (شمس) .
٤ ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل : لنائحة عتيبة بن الحارث ، وقيل لام البنين بنت عتيبة بن الحارث ، تاج العروس (٩/٣٧٤) ، اللسان (١٧/٦٣٠) ، تاج العروس (٩/٥١٠) ، (لاه)، (تروحنا من اللعباء قصرا) ، ابن الاجدابي الازمنة والانواء (٧٩) .
٥ بالضم
٦ تاج العروس (١٠/١٣٧) ، (ذكو) .
٧ الاصابة (١/٥١) ، رقم (١٢١) .

صلاة الضحى ، وهي صلاة كانت تعرفها قريش ، ولم تنكرها ، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة .

وقد لاحظ بعض السياح ان آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل،حيث تتجلى في تقدير هذين الكوكبين وفي تأنيب من يتطاول عليهما بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشير إلى انه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين[1] .

ويلي الشمس والقمر (الزهرة) ، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية ، ويسمى (عثتر) . وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر . وهذا الثالوث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكوّنة من ثلاثة أرباب،هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزُّهرة ، والأم وهي الشمس .

وإذ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة ، صار اسمه في طليعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص ، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى،وبه تسمى أشخاص كثيرون . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية ، لا نجده في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين[2] . كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثتر) عند العرب الجنوبيين ، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية ، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم .

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى،وتقربوا اليها بالنذور والصلوات . ففي كتب الأخباريين ان طائفة من تميم عبدت (الدّبران) ، وان (العيوق) في زعمهم (عانق الدبران لمّا ساق إلى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سمّوا هذه النجوم القلاص)[3] .

---

١ Handbuch, I, S. 199, 201, 205, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1866, 250, A. Grahmann, Arabien, S. 81.

٢ Handbuch, I, S. 213.

٣ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) ، ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (٧١) .

وفي كتبهم أيضاً ان بعض قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وان أول من سنّ ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم(أبو كبشة) . وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي) ، أو (وجز ابن غالب) ، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان ، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته . خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور . وكان (وجز) يقول : إن الشعرى تقطع السماء عرضاً ، فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً . والعرب تسمي الشعرى العبور ، لأنها تعبر السماء عرضاً ، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،اليه ، والعرب تظن ان أحداً لا يعمل شيئاً إلا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دينَ قريش ، قالت قريش : نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى. وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه . وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة ، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه ، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة ، فيقولون : «خالف كما خالف أبو كبشة »[1] . وذكر (القرطبي) ان أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ابن أبي كبشة ، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح ، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تمرّ عليه : لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة)[2]. وكان (الحارث) ، وهو (غبشان بن عمرو بن بؤي بن ملكان) ، ويكنى أبا كبشة ، ممن يعبد الشعرى[3] .

و (الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية : « وإنه هو ربّ الشعرى»[4] . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى . وهو النجم

---

١ الزبيري ، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٤٢/٤) ، (كبش) .
٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) ، تفسير الطبرسي (١٨٣/٢٧) ، (١٨٣/٩) ، (طبعة طهران) ، المحبر (١٢٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/١ ص ٣١) .
٣ المحبر (١٢٩) .
٤ النجم ، الآية ٤٩ .

الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، ويقال له المرزم[1] . وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم[2] .

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يقال له المرزم ، وطلوعه في شدة الحر . وتقول العرب إذا طلعت الشعرى ، جعل صاحب النحل يرى . وهما: (الشعريان) : العبور ، والشعرى الغميصاء . تزعم العرب أنهما أختا سهيل . وعبدت طائفة من العرب الشعرى العبور . ويقال : إنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها . وسميت الأخرى الغميصاء ، لأن العرب قالت في حديثها: إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت[3] .

والعرب تقول في خرافاتها : إن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل فصار يمانياً ، فاتبعتـــه الشعرى العبور فعبرت المجرة فسمّيت العبور ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه ، فسميت غمصاء لأنها أخفى من الأخرى[4] .

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا (الثريا) ،وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم) ، وأن (كنانة) عبدت القمر[5] . ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبـــد الثريا ، وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانا صنمين معبودين في الجاهلية[6] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم) : (والنجم اذا هوى)[7] : الثريا[8] (والعرب تسمي الثريا نجماً)[9] . وقال بعض آخر : « إن النجم ههنا الزهرة ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها »[10] .

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٤٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤١) ، (جوز) ، القرطبي ، الجامع (١٧/١١٩ وما بعدها) .

٢ تفسير القرطبي (١٧/١١٩) .

٣ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .

٤ تفسير القرطبي (١٧/١١٩ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (٢/٢٤٠) ، تاج العروس (٨/٣١١) ، (رزم) .

٦ Ency. Religi. I, p. 66.

٧ سورة النجم ، الآية ١ .

٨ تفسير الطبري (٢٧/٢٤) .

٩ تفسير القرطبي (١٧/٨٢ وما بعدها) .

١٠ المصدر نفسه .

وعبدّ بعض الجاهليين (المريخ) ، واتخذوه إلهاً ، كما عبد غيرهم (سهيلا) Canapus و (عطارد) Merkur و (الأسد) Lion و (زحل) .

وقد ذكر أهل الأخبار ، ان أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه. فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكانوا يجعلون لها أثراً في الزرع وفي الانسان ، فأبطل ذلك الاسلام ، وجعله من أمور الجاهلية . جاء في الحديث : « ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء»[1].

ومن مظاهر الشرك المتجلي في التعبد للأمور الطبيعية الملموسة ، عبادة الشجر، وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين . وقد أشار (ابن الكلبي) الى نخلة (نجران) ، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، (لها عيد في كل سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ للنساء ، فخرجوا اليها يوماً وعكفوا عليها يوماً)[2] . ومنها العزى وذات أنواط . يحدثنا أهل الأخبار عن ذات أنواط ، فيقولون : (ذات أنواط : شجرة خضراء عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها ، وكانت قريبة من مكة . وذكر انهم كانوا إذا حجّوا، يعبقون أرديتهم عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردية ، تعظيماً للبيت،ولذلك سميت (ذات أنواط)[3] . (وقد روي ان بعض الناس قال : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)[4] .

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس . تظهر في امتناع بعضهم وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر ، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم ويمكروه سيحيق بهم . ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء[5] .

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات . فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد الخيل) ، وهم من طيء ، كانوا يتعبدون لجمل أسود . فلما وفد وفدهم على

---

١ ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (١٣٦) .
٢ البلدان (٨/٢٦٠) ، (نجران) .
٣ البلدان (١/٣٦٣) ، (أنواط) ، تاج العروس (٥/٢٣٦) ، (فوط) ، الازرقي (٧٤ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها) .
٥ Grahmann, S. 82.

الرسول ، قـال لهم : « ومن الجمل الأسود الذي تعبدونـه من دون الله عزّ وجلّ »[1] . وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا بـ(الأسبذيين) ، كانوا يعبدون الخيل[2] . ذكر أنهم قـوم من المجوس ، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين[3] . فهم فرس . وأن بعض القبائل مثل (إياد) ، كانت تتبرك بالناقة[4].

الشفاعة :

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين . وأقصد بالشفاعة هنـا ، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم الى الأصنام بأنهم ما يتعبدون لها إلا لتقربهم الى الله : « ويعبدون من دون الله مـالا يضرّهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[5] . « والذين اتخذوا من دونه أولياء . مـا نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . إنّ اللهَ يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون»[6]. فهم يحاجّون الرسول ، ويدافعون عن التقرب الى الأصنام ، بقولهم : إنها تشفع عند الله ، فهي شفيعة ، فهم لا يعبدون الأصنام إذن ، ولا يشركون بالخالق ، وإنما هم يتقربون اليه بها . فهي الواسطة بينهم وبين الله[7] .

الأصنام :

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعـاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب . ومن عادتهم انهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإلـه الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناذر ، ويشار إلى السبب الداعي

---

١ الاغاني (٤٧/١٦) ، الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) .
٢ البلاذري ، فتوح (٨٩) ، (البحرين) .
٣ اللسان (٤٩٣/٣) ، (سبذ) .
٤ الاغاني (٩٣/١٥) ، « في أخبار أبي دواد الايادي » .
٥ سورة يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٨ .
٦ الزمر ، الآية ٣ .
٧ المفردات ، للاصفهاني (٢٦٤) .

إلى ذلك ، كأن يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإلـه أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه ، فأجيبت مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه النذور ، فهي وفاء لديـن استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى ان الأصنام كانت تدافـع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وان أبناء القبيلة أبناؤها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها (اب) (أب) في كتاباتهم ، ويكتبون عن أنفسهم (أبناء الصنم ...) . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (بني غطيف) بشأن الصنم (يغوث) ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ فناجزناهمُ قبـل الصباح[1]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة ، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم .

وفي معركة أحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة الـتي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، نادى أبو سفيـان بأعلى صوته : « اعلُ هُبَل ! اعلُ هبل ! » ، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين ، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به . أما المسلمون ، فاستنجـدوا بالله ، إذ ردّوا عليه ردّة قوية عالية : « الله أعلى وأجل » . فقال أبو سفيان : « ألا لنا العزى ولا عُزى لكم » . فأجابه المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[2] .

وفي الحروب يحارب كل إلـه عـن قبيلته ، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر . ولهذا السبب كانت القبائل والجيوش تحمـل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب . تتبرك بهـا وتستمد منها العون والنصر . ولمـا حارب الأعراب الملك (سنحاريب) ملك آشور ، حملوا أصنامهم : (دبلت) (دبـلات) Diblat ، و (دية) Daia = Daja

---

١ البلدان (٥١١/٨) .
٢ الطبري (٥٢٦/٢) . « معركة أحد » .

و (نوخيا) Nuhaia و (ابيريلو) Ebirillu و (عثر قرمية) Atar Kurumaia ، معهم لتدافع عنهم،ولتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم ، كان في جملتها هـذه الأصنام المسكينة ، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها الى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنـه (أسرحدون) الحكم ، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم اليهم ، فرقّ على حالهم وأعاد اليهم تلك الأصنام السيئة الحظ ، التي كتب عليها أن تسجن،وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[1] .

وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريـين ، وذلك في أيام (أسرحدون) ، فلما انضم (لبلي) (ليل) Laili ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi' = Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك ، لحقت بهم الهزيمة ، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين ، وأخذت إلى (نينوى) ، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمـة الملك لاسترضائه ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ، وأعاد اليه أصنامه[2] .

وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم (اترسمين) (اترسمائين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-a-in) . و (اتر) هو (عثتر) ، فيكون المراد به (عثتر السماء) عثتر السماوات ، ويـدل ذلك على أنه إلـه السماء . وكان قد وقـع أسيراً في أيديهم ايام الملك (أسرحدون) ، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uaite العربي اليه ، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك،وصالحه وأرضاه، فأعاد اليه أصنامه ومنها الصنم المذكور[3] .

وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم في الحروب الى وقـوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الإنسان في الأسر . بل يكون أسر الأصنـام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان . إنها آلهة تدافع وتحامي ، إنهـا

١ Musil, Deserta, p. 481, Reall., II, S. 265, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.

٢ Musil, Deserta, p. 483, Realb., I, S. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol. II, p. 470 - 471.

٣ Reall., I, 310, Schrader, KAT., S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VIII S. 72.

آلهة القبيلة كلّها ، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلـــة . وقد أشرت الى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل (عربي) التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة الى أرض آشور ، والى مفـاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر ، وبانتصار آلهة آشور عليها ، لتكون نذيراً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد .

وقد أشير الى (خيل اللات) في مقابل (خيل محمد) ، في شعر لأبـي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، إذ قال :

لعمرك إني يوم أحمـل راية لتغلب خيل الله خيل محمد[1]

ومن أمثلة العرب : (لا تفر حتى تفر القبة) ، أو (لا نفر حتى تفـــر القبة)[2] . ويراد بالقبة : قبة الصنم ، أي خيمة الصنم التي تحمل مـع المحاربين وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون،يستمدون منها العون والنصر . كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال ، ويأخذون برأيها فيما تأمر به .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عنايـــة خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه،وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هـذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك على سنن الآبـــاء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان .

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لهـا النصر والخسارة ، كان يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه ، نتيجة لانهزام القبيلة،

---

١ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٢ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) .

إذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره في الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه الى ربّ قويّ جديد . وقد يكون ذلك الرب هو ربّ القوية المنتصرة ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بتفوّقها في الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائماً في جانب القوي .

وكان على كهّان صنم القبيلة المغلوبة ايجاد تفسير لعلة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم ، والبحث عن عذر يدافعون به عن الصنم ، ويلقون اللوم فيه على أتباعه ، لتبرئة ذمته وابعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته . فكان من أعذارهم ، أن الهزيمة عقاب من الإلـه أرسله الى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيه ، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه ، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهّانه . ولن تنقشع عنهم النكبة ، ويكتب لهم النصر ، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهّان وأرضوا الآلهة ، وعملوا بما أوجبته شريعتهم عليهم . وهكذا يلوم الكهان الناس، دفاعاً عن آلهتهم التي خلقوها بأنفسهم ، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات ، التي نعتوها آلهة وأصناماً .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلـهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها ، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إلـه القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبّد لإلـه آخر . فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر إدّ ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر . إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته . إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة ، والمحامي المدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب ، وتفكيك لوحدته ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرّض الثائر للعقاب[1] .

نعم ، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة ، أو تبديل دينها ، كما سنرى فيما بعد . فهؤلاء هم سادة ، والناس تبع لسادتهم ،

---

١ Robertson, p. 37. f.

وفي المثل : « الناس على دين ملوكهم » . لقد أضاف سادة أصناماً الى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها ، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء ، ونبذت قبائل بعض أصنامها ، بأمر من سادتها . ودخلت قبائل في الاسلام، لدخول سيدها فيه ، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية، بتنصر سادتها، بكلمة أقنعت الرئيس ، أو بعد محاورة ، أو بإبلال من مرض قيل له انه كان ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب .

عبادة الأصنام :

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام، حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه . « فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إلٰه واحد « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »[2] .

يقول ابن الكلبي : « واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه ربّاً، وجعل ثلاث أثافي لقدره . فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها »[3] . وروي أنه لم يكن حيّ

---

١ ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » ، ابن هشام (١/٨٤) ، الاصنام (٣٢) . خزانة الادب (٣/٢٤٥) .
٢ سورة ص ، الآية ٤ وما بعدها .
٣ الاصنام (٣٣) .

من أحياء العرب إلا وله صنم يعبده يسمونه : « أنثى بني فلان . ومنه قوله تعالى : إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً[1] . والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة »[2] . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام « ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك »[3] .

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعبدة الأحجار الى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار ، ثم اختيار حجر واحد من بين هذه الأحجار الأربعة المختارة . فهل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التي وضعها الفيلسوف (امبدوكلس) (Empedokles) (٤٩٠ — ٤٣٠ قبل الميلاد). نظرية أن الكون قد تكوّن من عناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار ، تمثل هذه القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ، ثم يختارون حجراً واحداً من بينها يكون أحسنها وأجملها ، ليكون رمزاً لها ، وممثلاً للإلـه .

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها . فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة . قال (ابن دريد) : « الحارث بن قيس : وهو الذي كان اذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده . وفيه نزلت : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »[4] . فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهليين .

ولدينا أمثلة عديدة تفيد ان كثيراً من الجاهليين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون اليها كل يوم . ولا يعني ذلك بالطبع ان تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً ، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة ، وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة نحتاً جيداً ، وانما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب اليه المرء . روي ان (أحمر بن سواء بن عدي السَّدُوسي) ، كان له صنم يعبده، فعمد اليه فألقاه في بئر ، ثم جاء الى الرسول فأسلم[5] .

---

١ النساء ، الآية ١١٧ .
٢ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٣ تفسير الطبري (٥/١٧٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٥/١٣٤) .
٤ الاشتقاق (٧٦) .
٥ الاصابة (١/٢٢) .

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتأففوا منها ، رأوا انها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، فلم يتقربوا اليها ، وقالوا بالتوحيد ، ومن هؤلاء (مالك بن التيهان) ، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الاسلام من أهل (يثرب) ، و (أسعد بن زرارة)[1] .

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين[2] ، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول ، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة ، فذهبوا الى انتفاء الحاجة لذلك الى عبادة أصنام ترمز الى تلك الآلهة . وعندي أن في اصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع ، لأننا لم نقم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره إلا بعد دراسات علمية عميقة لمواضع الآثار ، فلربما تكشف دراسات المستقبل عن حلّ مثل هذه المشكلات . إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتحطيمها ، فذهبت معالمها ، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها ، لا زال راقداً تحت التربة ، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الاسلام بسبب دمار حلّ بالموضع الذي عبد فيه ، أو من الأصنام التي وصلت اليها أيدي الهدم ، فطمرت في الأتربة ، وعلى كلّ فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده ، وعليه الاعتماد .

والرأي الذائع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي بادىء بدء للأصنام ، ولم يكونوا ينظرون اليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوّروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإلـه أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهد طويل عليها ، نسي الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوها أصناماً وعبدوها من دون الله . وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما « رجل وامرأة من جرهم ، وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فمسخا »[3] ، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

---

١ طبقات ابن سعد (٤٤٨/٣) « صادر » .

٢ Arabien, S. 247.

٣ الروض الأنف (٦٤/١) .

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات »[1] . أو كالذي رووه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا نفراً من بني آدم صالحين ، « وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم فلما مـــاتوا ودبّ اليهم ابليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[2] .

وهذه العقيدة هي التي خلقت للأخباريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام ، كانت تتحدث الى الناس ، وهـــي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جنّ من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنة عـــلى وصفهم إناثاً ، والغالب انهن على هيأة زنجيات شمطاوات عجائز ، وقـــد نثرن شعورهن[3] . وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حمل بعض من عهد اليهم تحطيم تلك الأصنام عـــلى التهيب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى اليهم ولا شك برواية القصص المذكور .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يظن انها كامنة فيه[4] . وتكون الأصنام على أشكال مختلفة ، قد تكون على هيأة بشر ، وقد تكون على هيـــأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى. ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبدتها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والمؤثرات التي تحيط

---

١ البلدان (٧/٣١٠) « اللات » .

٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٢) .

٣ البلدان (٧/٣١٠) « اللاث » .

٤ Ency. Religi.. 7, p. 112.

بهم . وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر اليها نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهارة التي يبديها الفنان في الصنع . ويحاول الفنان في العادة ان يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images . وكذلك بصور السحر Magical Images . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة ، أو جاءوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير اليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير الى ذلك المقدس[1] . فالصور المرسومة إذن ، هي نوع من العبادة أيضاً ، ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال .

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي ، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لشيث ، وأن يغوث كان ابناً لسواع ، وكذلك كان يعوق ونسر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين. ولما عهدوا في دعائه من الإجابة . فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلوف ، وقالوا : ما عظّم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح ، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً ، وسموها بأسمائها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[2] .

---

١ Ency. Religi. Vol. 7, p. 110.

٢ الروض الأنف (١ /٦٢) ، تفسير الطبرسي (٥/٣٦٤) .

وهناك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوا حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا شركاء لله ، تعبد لها ، لأنها في نظرهم تنفع وتضر .

ونجد في أخبار فتح مكة ان الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة ، فأمر بها فمحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرصعة بالرصاص، وهبـــل أعظمها ، وهو وجاه الكعبـــة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون ، فأمر بها فكسرت[1] .

أما هذه الصور ، فقيل انها صور الرسل والأنبياء ، وبينها صورة (ابراهيم) وفي يده الأزلام يستقسم بها[2] .

الأصنام :

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله،وما كان له صورة كالتمثال (مثال) ، وعمل من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد ، أو غيرها من جواهر الأرض . وقال بعضهم : الصنم جثة متخذة من فضة ، أو نحاس ، أو ذهب ، أو خشب ، أو حجارة ، متقربين به الى الله ، فالشرط فيه أن يكون جثة : جثة انسان أو حيوان . وقيل : الصنم الصورة بلا جثة[3] . وذكر ان الصنم ما كان من حجر أو غيره[4] . وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن[5] . و (الصنمة) ، الصورة التي تعبد[6] . وقد كان (المنطبق) صنماً من نحاس أجوف يكلمون من جوفه[7] .

---

١ ابن الاثير (٢/١٠٥) ، (فتح مكة) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ (فترك عمر صورة ابراهيم عليه السلام ، حتى محاها عليه السلام) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣) ، الروض الانف (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/٢٤١) (١٧/٣٣٣) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (٩/٣٥٨) ، (صنم) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، الاشتقاق (٣٠٢) ، الاصنام (٥٣) ، المفردات (٢٨٩) .
٤ الروض الانف (١/٦٢) .
٥ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) ، (صادر) .
٦ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٧ المحبـر (٣١٨) .

ووردت لفظة (صلم) في كتابات عثر عليها في أعالي الحجاز ، اسم علم لإلـه ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تيماء) . ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً لأشخاص في الكتابات اللحيانية . ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم ثمود[١] .

وقد وردت كلمة (أصنام)[٢] و (أصناماً)[٣] و (الأصنـام)[٤] و (أصنامكم)[٥] في القرآن الكريم ، بحسب مواقع الكلمة في الجملة .

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة ، وإنما هي معربـة وأصلها (شمن) (شنم) ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها[٦] . وترد اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية . وردت (صلمن) في نصوص المسنـد بمعنى (صنم) و (تمثال) ، و (مثال)[٧] . ووردت في لهجات عربيـة أخرى . وهي (صلمو) Salmo في لغة بني ارم ، ومعناها (صورة) . من أصل (صلم) بمعنى (صوّر) . وتقابل (صلم) في العبرانية[٨] .

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) تعبدوا لصنم من حيس، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم جاعوا فأكلوه ، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعيرون به (بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة[٩] . وهو في رأيي من القصص الذي يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم .

---

١ Grimme, 23.

٢ الاعراف ، الآية ١٣٧ .

٣ الانعام ، الآية ٧٤ ، الشعراء ، الآية ٧٢ .

٤ ابراهيم الآية ٣٥ .

٥ الانبياء ، الآية ٥٧ .

٦ القاموس (٤/١٤١) ، اللسان (١٥/٢٤١) ، تاج العروس ، (٨/٣٧١) ، روح المعاني (١٣/٢١٠) ، خزانة الادب (٣/٢٤٤ وما بعدها) .

٧ (صلمن ذ صرفن وصلمنن ذ ذهبن) ، أي (تمثال من فضة ، وتمثالان من ذهب) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لغويدي (١٩) .

٨ غرائب اللغة (١٩٣) .

٩ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

الوثن :

وأما كلمة (وثن) ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المسند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل : (وليذبحن وثنن درا بخرفم ذبصم صححم انثيم وذكرم) ، أي (وليذبح للوثن مرة في السنة ذبحاً صحيحاً، أنثى أو ذكراً)[1] . ان الوثن هو الذي يرمز الى الإلـــه ، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم .

الصلم :

ويظهـر من استعـــمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و (وثن) (الوثن) ان هناك فرقاً بين الكلمتين في نصوص المسند ، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضة ، أو من ذهب ، أو من نحاس ، أو من حجر ، أو من خشب ، أو من أية مادة أخرى ويقدم الى الآلهـــة لتوضع في معابدها تقرباً اليها ، لاجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي انها تقدم نذوراً . أما الوثن ، فإنه الصنم في لهجتنا ، أي الرمز الذي يرمز به الى الإلـه ، والذي يتقرب له الناس .

والوثن في رأي بعض العلماء،لفظة مرادفة لصنم. وقال بعض آخر : (المعمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن)[2] . وذكر بعض آخر ان الصنم ما كان لـه صورة جعلت تمثالاً ، والوثن ما لا صورة له . « وقيل ان الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد ، والصنم صورة بلا جثة . وقيل : الصنم مـــا كان على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها » . « وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة ، فصنم ، فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهـــو وثن . وقيل : الصنم من حجارة أو غيرها ، والوثن ما كان صورة مجسمـــة .

---

١ المختصر ، لغويدي (١٨) .
٢ الاصنام (٣٣) ، (روزا) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (صنم) ، (٩/٣٥٨) ، (وثن) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، اللســـان (١٧/٣٣٣) ، خزانـــة الأدب (٣/٢٤٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠١) .

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله » . وقال بعض آخر : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] . وذكر بعض آخر : « أصل الأوثان عند العرب، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها »[2] .

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن[3] . ولم يذكروا شيئاً عنه غير ذلك . وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن) ، إذ قال :

تطوف العفـــاة بأبوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب) . « قال عديّ بن حاتم : قدمت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : القِ هذا الوثن عنك، أراد به الصليب ، كما سمّاه الأعشى وثناً »[4] .

فنحن اذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و (الوثن) . منهم من جعل الصنم مرادفاً للوثن ، أي في معنى واحد ، ومنهم من فرّق بينهما ، ومنهم من جعل الصنم وثناً والوثن صنماً . والظاهر ان مردّ هذا الاختلاف ، هو اختلاف استعمال القبائل للكلمتين ، فلما جمـــع علماء اللغة معانيها ، وقع لهم هـــذا التباين وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي .

وترد في كتب الأدب واللغة لفظـــة (البعيم)[5] . اسم صنم ، والتمثال من الخشب ، وقيل الدمية من الصمغ[6] . والمِثال الشبه ، وما جعـــل مثالاً لغيره ، والتمثال . وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق واذا قدرته على قدره . وذكر انهـــا الأصنام . وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم : (ما هذه التماثيـــل ؟ أي

---

١ الروض الانف (٦٢/١) .
٢ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) ، (صادر) .
٣ اللسان (٣٨٧/٨) ، (ودع) .
٤ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) .
٥ البعيم ، كأمير .
٦ تاج العروس (٢٠٣/٨) ، (البعيم) ، الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) « روزا » .

الأصنام . وقوله تعالى : من محاريب وتماثيل ، هي صور للأنبياء)[1] . وذكر : التماثيل للأصنام ، والصورة ، والشيء المصنوع مشبهـاً بخلق من خلق الله . أي انسان أو حيوان أو نبات[2] . ويعبر عن التمثال والمثال بلفظة (امثلن) في العربيات الجنوبية . وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل الى الآلهة لتوضع في معابدها وفاء لنذور نذروها لها[3] .

و (الدمية) الصورة المنقشة من الرخام ، أو عام من كل شيء ، أو الصورة عامة . والصنم ، والأصنام دمى . ومن أيمان الجاهليـة : لا والدمى ، يريدون الأصنام[4] . وذكر ان (الدمية) ما كان من الصمغ[5] .

و (البدّ) الصنم الـذي يعبد ، فارسي معرب . عرب من (بت) بمعنى (صنم)[6] . وذكر ان (البد) ، بيت الصنم والتصاوير أيضاً[7] .

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام . فكان (عكرمة بن أبـي جهل) ممن يعملها بمكة[8] . وكان الأعراب اذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشتروا الأصنام منها للتعبد لها[9] .

هيأة الأصنام :

وقد وصف (ابن الكلبي) ، وهو الراوية الرئيس والعـالم الكبير بالأصنام هيأة بعض الأصنام ، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل) ، كان عـلى صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركتـه قريش فجعلت له يداً من ذهب[10] . فهو تمثال إنسان اذن نحت من حجر أحمر أو وردي ، لا يستبعد أن يكون من عمـل بلاد

---

١ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٢ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٣ Jamme 558, MaMb 201, Mahram, p. 24.
٤ تاج العروس (١٠/١٣١) ، (دمى) .
٥ الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) .
٦ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) ، غرائب اللغة (٢١٨) .
٧ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) .
٨ الازرقي (١/٧٧ وما بعدها) .
٩ الازرقي (١/٧٨) .
١٠ الاصنام (٢٧ وما بعدها) ، الازرقي (١/٦٨) .

الشأم أو من عمل الفنانين اليونان ، واستورد من هناك ، فنصب في جوف الكعبة . استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحيّ) على رواية أهل الأخبار ، أو غيره ، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت . فوضعه في موضعه . ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم ، هل كان ذلك بسبب حادث ، او بسبب أسطوري . وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة [1] ، في رواية أكثر الأخبار . وتمثال من حجر على رواية [2] . وأما العزى ، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً ، أي تمثالاً ، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام . واما (ود) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [3] . وأما (سواع) ، فكان صنماً على صورة امرأة . ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان . فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر .

وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد ، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون اليها بالتعبد والنذور . وأما الأصنام الصغيرة ، وهي التماثيل التي كان يتعبد لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تبركاً بها . فقد كانت كثيرة ، لا يخلو منها انسان ، وكانوا يتقربون بها الى الأصنام الكبيرة . وقد عثر المنقبون على عدد كبير منها ، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والاتقان .

عبادة الاصنام :

ونظرية (ابن الكلبي) ومن لفّ لفّه من الأخباريين ان نسل اسماعيل بن ابراهيم لمّا تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة .

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ تفسير أبي السعود (٥/١١٢) .
٣ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) « روزا » .

فحيثما حلّوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بهـا وصبابة بالحرم وحُباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل .

(ثم سلخ بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، عـلى إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عَرَفَة ومزدلفة ، واهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)[1] .

فكان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحيّ ، فهـيرة بنت عامر عمرو بن الحارث بن عمرو الجرهمي ، ويقال : قمعة بنت مضاض الجرهمي[2] .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحيّ ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهماً ببني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة،ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشأم حمّة إن أتيتها، برأت . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها عـلى العدوّ . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقـدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة . ثم أخذ عمرو ابن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل . وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس[3].

---

١ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١ /٨٢) ، الروض الأنف (١/٦١) .

٢ الازرقي ، اخبار مكة (١/٤٦) .

٣ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٧٦) ، البلدان (٨/٤٠٨ وما بعدها) ، (ود) ، مروج الذهب (٢/٢٢٧) ، (ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة) ، سبائك الذهب (١٠١) ، الروض الانف (١/٦٤) ، البلدان (٤/٦٥٢ وما بعدها) (طهران ١٩٣٥) .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسمّوها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل ، هُذيل بن مدركة »[1] . فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام الى هذيل .

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ؛ ففي رواية ان (عمرو بن لحيّ) حينما قدم (مآباً) من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأيدي العماليق ، ووجدهم يتعبدون للأصنام ، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به الى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه الصنم هبل ، فأخذه ، وقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[2] . فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحيّ) ، والموضع الذي نزل به، وثبتت اسم الصنم الذي أخذه منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام . غير ان تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي) ، يدل على ان المنبع واحد ، وانما الخلاف هو في ذكر بعض الفروع ، وفي اختصار بعض المواضع ، والإطناب في مواضع أخرى .

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك ، وهي في كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبادة الأصنام الى عمرو بن لحيّ ، غير انها تروي الخبر في صيغة أخرى ، فتقول :

« وكان عمرو بن لحيّ ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خزاعة ، وأمه فُهيرة بنت الحارث ، ويقال إنها كانت بنت الحارث بن مضاض الجرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً ، وتولى سدانتها .

---

١ الاصنام (ص ٩) ، نسب عدنان وقحطان ، للمبرد (٢٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (١/٩٤) ، ابن هشام (١/٧٨) ، (البابي) ، البلدان (٤/٦٥٢) ، (طهران) ، ابن خلدون (٢/٦٨٦) ، مروج الذهب (٢/٥٦ وما بعدها) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، أبو الفداء (١/٧٦) .

٢ ابن هشام (ص ٦٢) ، حاشية على الروض الانف ، ابن هشام (١/٨٢) ، ديوان حسان (p. 11) ، (هرشفلد) ، ابن هشام (١/٧٨ وما بعدها ، ١٢٠) .

وكان له رئي من الجن،وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من تمامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جيّر ، ولا إقامة .

قال : ايت ضَفَّ جُدَّة ، تجد فيها أصناماً معـدة ، فأوردها تهامة ولا تهاب ، ثم ادع عبادتها قاطبة .

فأتى شطّ دجلة ، فاستشارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة ، وحضر الحجّ ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عُذْرة بن زيد اللآت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فدفع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ودّ . فهـو أول من سُمّي به ، وهو أول من سمّي عبد ودّ ، ثم سمعة العرب به بعد[1] .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبـادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أخذت الأصنام منه . فهنا (جُدَّة) على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشأم . والموضعان ، وإن كانا يختلفان موقعاً ، يتفقان في شيء واحد هو وقوعها على حدّ مقصود ، يرده الأجانب منذ القديم للاتجار . فهل يعني هـذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من بلاد الشأم أو من مصر ، وانهـا كانت من عمل اهل الشأم او اهل مصر او من عمل الروم او الرومان ؟ وتذكر رواية أخرى ان (عمرو بن لحيّ) ، إنما جاء بالصنم (هبل) ، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة[2] .

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غيّر دين اسماعيل،فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي . فقـأ عين عشرين بعيراً ، فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً . فإذا بلغت ألفين ، فقئت العين الأخرى . وقد نسب اليه كلام طويل . وزُعم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عـالم القصص والأساطير ، ورجـع عصره الى ايام (العماليق) والى ايام (سابور ذي الأكتاف). وذكر ان العرب

---

١ الاصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .
٢ الازرقي (١/٧٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) .

جعلته (رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة)[1]، وذكروا انه كان ملكاً على الحجاز ، وكان كبير الذكر في ايامه ، الى غير ذلك من قصص برووه عنه[2] .

وذكر (المسعودي) ، ان (عمرو بن لحيّ) حين خرج الى الشأم ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة،وأكثر من الأصنام ، وغلب على العرب عبادتها،انمحت الحنيفية منهم إلا لماماً ، ضج العقلاء في ذلك ، فقال (شحنة بن خلف) (سحنة بن خلف الجرهمي) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحد أبداً ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مَهَلٍ ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا[3]

وكان (عمرو بن لحيّ) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار[4] ، وهو من (خزاعة) ، التي انخزعت من اليمن . ثبت حكمه على مكة ، بعد أن انتزع الحكم من جرهم ، وغلب قومه عليها ، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم . وقد نسبوا اليه وضع بقية الأصنام ، مثل اللات واساف ونائلة ، فهو على رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت الى أيام النبي ، والتي حطمت بأمره عام الفتح ، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى .

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحيّ) كان أول من غيّر تلبية (ابراهيم). وكانت : (لبيك لا شريك لك . لبيك) ، فجعلها : (لبيك اللهم لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك) ، وقد كان (ابليس) قد ظهر له في صورة شيخ نجديّ على بعير أصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى ابليس ، فلبى (عمرو) تلبيته حتى خدعه . فلبّاها الناس على ذلك[5] .

---

١ الروض الأنف (٦٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٨/٢) .
٢ المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (٩٤/١) .
٣ مروج الذهب (٢٩/٢ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (٣٠٣/٢) .
٥ الازرقي (١٢٦/١ وما بعدها) ، (٢٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩/١ وما بعدها) .

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه[1] . ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والسلطان والجاه، ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار . واني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلاّ لمَ حفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه . والظاهر أنه كان كاهناً من الكهّان ، ورجلاً كبيراً من رجال الدين .

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قمعة) كان أول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة[2] .

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحيّ) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب اقحاماً من غير أصل ولا أساس ، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا في عهد غير بعيد عن الاسلام ، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون ، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه . وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحيّ) للأصنام من بلاد الشأم ومجيئه بها الى الحجاز ، ونصبه لها في الكعبة وفي مواضع أخرى ، لما وجده من حسن صنعة التماثيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها ، فاشترى عدداً منها ، لتنصب في المحجات ، فنسبت عبادة الأصنام اليه .

وزعموا أن (ابن أبي كبشة) : (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث ابن غبشان الخزاعي)، كان ممن أدخل الشرك الى العرب ، وخالف دين التوحيد . لقد ذكروا أنه دعا الى عبادة (الشعرى العبور)[3] .

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب ، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية ، وعند غير الساميين ، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن .

وكانت قريش تتعبد وتتقرب الى أصنام قبائل أخرى ، على شرط المثل ، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش . فقد ذكر (السكرى) أن قريشاً

---

١ أخبار مكة (٥٤) .
٢ الاستيعاب (١/١٢٠) .
٣ تاج العروس (٤/٣٤١) .

كانت تعبد صاحب كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[1] . وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع ، وتحج اليه كل سنة مرة ، في موسم الحج ، بالإضافة الى الأيام الأخرى من أيام السنة ، حيث تقع فيها العمرة . فربحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً ، وصارت مكة سوقاً مستقرة ثابتة ، يقصدها الناس في كل وقت .

الحلف بالأصنام والطواغيت :

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام ، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت . والظاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام . فقد ورد في الحديث : « أنه قال من حلف بغير الله ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إلَه إلاّ الله »[2] ، و « من حلف ، فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إلَه إلاّ الله » ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق »[3] . وكانت ألسنتهم تسبقهم ، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام[4] .

---

١ المحبر (٣١٨) .
٢ ارشاد الساري (٩/٣٧٧) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
٤ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .

الفصل الثالث والستون

أنبياء جاهليون

ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن الجاهليين لم يعدموا من الأنبياء ، فقد ذكروا لهم أنبياء قالوا إنهم بشروا بالله وبدينه بين العرب الأولى ، ومنهم (هود) نبيّ (عاد) ، و (صالح) نبي قوم ثمود . وقد أشير اليهما في القرآن الكريم [1] .

وزعموا أن رجلاً من بني (قطيعة بن عبس) كان نبيّاً كذلك ، ولم يكن في بني اسماعيل نبيّ قبله . وهو الذي أطفأ الله به (نار الحرتين) . وكانت ببلاد عبس . فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وكانت طيء تُنفش بها إبلها ، وربما ندرت منها (العنق) ، أي قطعة فتأتي على كل شيء فتحرقه . وإذا كان النهار فإنما هي دخان يغور . فاحتفر (خالد) لها بئراً ، ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم فيها حتى غيبها . وذكروا أنه نجح في إخمادها ، وكان الناس يقولون : هلك الرجل ، فكذبهم ، وخرج سالماً . فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذ أنا مت ثم دفنتموني ، فاحضروني بعد ثلاث ، فإنكم ترون عيراً أبتر يطوف بقبري ، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني ، فإني أخبركم بما هو كائن الى يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث ، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه ، اختلفوا ، فصاروا فرقتين ، وابنه عبدالله في الفرقة التي أبت أن تنبشه ، وهو يقول : لا أفعل ! إني إذاً ادعى ابنَ المنبوش ! فتركوه .

---

١ سورة هود ، الآية ٥٣ ، ٦٠ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٢٤ ، صالح ، سورة الاعراف الآية ٧٧ ، هود ، الآية ٦٢ ، ٨٩ ، الشعراء ، الآية ١٤٢ .

قال (الجاحظ) : والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابياً وبَرياً ، من أهل (شرج) و (ناظرة) . ولم يبعث الله نبياً من الأعراب ولا من الفدّادين أهل الوبر ، وهم أهل البادية . إنما يبعثهم من أهل القرى ، وسكان المدن[1] .

ويظهر أنه عاش قبيل الإسلام . فقد ذكر أهل الأخبار أن ابنة له قدمت على النبي ، فبسط لها رداءه وقال : هذه ابنة نبي ضيعه قومه . وذكروا أنها لما سمعت سورة : « قل هو الله أحـــد » ، قالت : قد كان أبـي يتلو هذه السورة[2] . وزعموا أنه هو الذي دعا على العنقاء ، فذهبت وانقطع نسلها[3] .

ثم نبيّ آخر اسمـــه (حنظلة بن صفوان) ، كان نبياً بعثه الله الى (أهل الرسّ) ، فكذبوه وقتلوه ، عاش في أيام (بختنصر) ، وقد نسب الى حمير ، وقيل إنه كان من أنبياء الفترة كذلك ، وإنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن الله أرسل (حنظلة) الى أهـــل عدن ، فقتلوه[5] .

وذكر أهل الأخبار اسم نبي أرسل الى أهل (حضور) ، اسمه (شعيب بن ذي مهدم) . فقتلوه ، فاستأصلهم (بخت نصر) ، وقبره بـ (صنين) جبل باليمن[6] .

وذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة بن حبيب الحنفي) ، كان ممن ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً[7] . وكان قد طاف قبل التنبي ، في الأسواق التي كانت بـــين دور العجم والعرب ، يلتقون فيها للتسوق والبياعات ، كنحو سوق الابلة ، وسوق لقه ، وسوق الأنبار ، وسوق الحيرة . وكان يلتمس تعلم الحيل والنيّرجات ، واختيارات النجوم والمتنبئين . وقد كان أحكم حيـــل السدنة

---

١ الحيوان (٤/٤٧٦ وما بعدها) .
٢ الحيوان (٤/٤٧٧) .
٣ (ذاك نبي أضاعه قومه) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٨ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/١٤٩) ، (عنق) ، تاج العروس (١/٤١٠) ، (عنق) .
٥ الروض الانف (١/٩) .
٦ الروض الانف (١/٩) .
٧ الحيوان (٤/٨٩) ، « مسيلمة بن عثامة بن كبير بن حبيب بن الحرث ، من بني حنيفة » ، ارشاد الساري (٦/٤٣٤) .

والحُواء وأصحاب الزجر والخط ، ومذهب الكاهن والعيّاف والساحر ، وصاحب الجن الذي يزعم أن معه تابعه[1] .

وقد أحكم من ذلك أموراً . فمن ذلك ، أنه صبّ على بيضة من خلّ قاطع، حتى لان قشرها ، فأدخلها في قارورة ضيقة الرأس،وتركها حتى جفت ويبست، وعادت الى هيئتها الأولى ، فأخرجها الى (مجاعة بن مرارة بن سلمى الحنفي) اليمامي ، وأهل بيته ، وهم أعراب ، وادعى بها أعجوبة ، وأنها جعلت له آية، فآمن به من في ذلك المجلس : مجاعة وغيره . ومن ذلك أنه كان قد حمل معه ريشاً في لون ريش أزواج حمامٍ ، وقد كان يراهن في منزل مجاعة مقاصيص . فالتفت ، بعد أن أراهم الآية في البيض ، الى الحمام فقال لمجاعة : الى كم تعذب خلق الله بالقص ؟! ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة ، وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام ! فقال له مجاعة كالمتعنت : فسل الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطير الذكر الساعة ؟

قال مسيلمة : فإن أنا سألت الله ذلك ، فانتبه له حتى يطير وأنتم ترونه ، أتعلمون اني رسول الله اليكم ؟ قالوا : نعم . قال فإني أريد أن أناجي ربي ، وللمناجاة خلوة ، فانهضوا عني ، وان شئتم فادخلوني هذا البيت وادخلوه معي ، حتى أخرجه اليكم الساعة واني الجناحين يطير . وأنتم ترونه ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام ، وكانوا بسطاء لا يعرفون حيل المحتالين ، فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه ، فأدخل طرف كل ريشة مما كان معه في جوف ريش الحمام المقصوص ، من عند المقطع والقصّ . فلما غرز ريشه أخرجه ، وأرسله أمامهم من يده فطار ، واعتبروا عمله آية .

ثم انه قال لهم : ان الملك ينزل إليّ ، والملائكة تطير وهي ذوات أجنحة ، ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة ، فمن كان منكم ظاهراً فليدخل منزله ، فإنّ من تأمل اختطف بصره ! ثم صنع راية من رايات الصبيان التي تعمل من الورق الصيني ، ومن الكاغد ، وتجعل لها الأذناب والأجنحة ، وتعلق في صدورها الجلاجل ، وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب . ثم أرسلها مع الريح ، وهم لا يرون الخيوط ، والليل لا يبين عن صورة الرق ، وعن دقة الكاغد ،

---

١ الحيوان (٣٦٩/٤ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .

فتوهموا أن ذلك الملائكة : وتصارخوا ، وصاح : من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن ! فأصبح القوم وقد أطبقوا على نصرته والدفع عنه . فهو قوله :

ببيضـــة قارورٍ ورايـــةِ شادن وتوصيل مقصوص من الطير جادف[1]

ونسب بعض أهل الأخبار (مسيلمة) على هذا النحو : (مسيلمة بن ثُمامة ابن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفان بن ذهل بن الدول بن حنيفة)[2] و (مسيلمـــة الكذاب بن حبيب) ثمامة بن كبير ، وجعله بعضهم (مسيلمة بن حبيب) . وجعلوا كنيته (أبا ثمامة) وقيل (أبا هارون) و (أبو ثمالة)[3] . وذكروا أنه كان يسمى بـ (الرحمان) قبل مولد (عبد الله) والـد رسول الله ، « وكانت قريش حين سمعت : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال قائلهم: دق فوك ، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة »[4] . وذكروا أنه دعا الى الرحمان ، أي الى عبادة الرحمان . بينما عرف نفسه بـ (الرحمن) ، فقيل له : (رحمـــان اليمامة)[5] . وأنه دعا الى عبادته هذه قبل النبوة ، وقد عرف أمره بمكـــة ، فلما نزل الوحي على الرسول ، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من (رحمان) اليمامة[6] . وقالوا له : « إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبداً » . « فأنزل الله سبحانه : وهم يكفرون بالرحمن . قـــل : هو ربي . كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، ثم أحد بني الدول قـــد تسمى بالرحمن في الجاهلية،وكان من المعمرين . ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبدالله ابو رسول الله صلى الله عليه وسلم »[7] .

قال (الواحدي) في أسباب نزول الآية : « وهم يكفرون بالرحمن . قل :

---

١ الحيوان (٤/ ٣٧١ وما بعدها) ، المعارف (٤٠٥) .
٢ الروض الانف (٢/ ٣٤٠) ، (وفد بني حنيفة) ، امتاع الاسماع (١/ ٥٠٦) ، البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .
٣ الاشتقاق (٢٠٩) ، البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٤ الروض الانف (٢/ ٣٤٠) ، اليعقوبي (١/ ١٢٠) .
٥ Shorter Ency., p. 416.
٦ Shorter Ency., p. 416.
٧ الروض الانف (١/ ٢٠٠) .

هو ربي لا إلـه إلا هو عليه توكلت واليه متاب »[1] : « قال أهـل التفسير : نزلت في صلح الحديبية ، حين أرادوا كتاب الصلح . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن ، إلا صاحب اليمامة ، يعنون مسيلمة الكـذّاب . اكتب باسمك اللهم . وهكذا كانت الجاهلية يكتبون ، فأنزل الله تعالى فيهم هـذه الآية »[2] . وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن . قالوا : وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا بـه وزادهم نفوراً »[3] ، « أن مسيلمة كان يـدعى الرحمن . فلما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، اسجدوا للرحمن قالوا : أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة بالسجود له »[4] . أو أنهم قالوا : « ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة . يعنون مسيلمة الكذاب »[5] .

ولا يعقل قول من قال ان مسيلمة كان يعرف بـ (الرحمن) قبـل ولادة (عبدالله) والد الرسول . أما انه كان أسنّ من الرسول فلا غرابة في ذلك ، ولكني لا أرى انه كان أكبر من الرسول بعشرات السنين . ومن الجائز ان يكون قد دعا الى عبادة (الرحمن) ، وهي عبادة كانت شائعة معروفة إذ ذاك ، في اليمامة وفي غير اليمامة ، فعرف بين قومه بـ (رحمن اليمامة) ، وذلك قبل نزول الوحي على الرسول ، فسمع أهل مكة بدعوته .

وورد في رواية ان (أبا جهل) سمع (رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الحجر ويقول : يا الله يا رحمن . فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة ، وهو يدعو إلهين . فنزلت هذه الآية ، : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)[6] . وفي هذا الخبر إن صح ، دلالة على ان أهل مكة كانوا قد سمعوا بعبادة (الرحمن) وانهم سمعوا ان قوماً من الجاهليين دعوا الى عبادته ، وان (أبا جهل) كان قد سمع قولهم ، ولهذا أخذ على النبي قوله : يا الله يا رحمن . ولا يعقل ألا يكون لأهل مكة علم بعبادة (الرحمن) ، التي تحدثت عنها في موضع آخر ، وقد كان

---

١ الرعد ، الرقم ١٣ ، الآية ٣٠ .
٢ أسباب النزول (٢٠٥ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٣١٧/٩ وما بعدها) .
٣ الفرقان ، الآية ٦٠ .
٤ تفسير الطبري (١٩/١٩) ، روح المعاني (٣٦/١٩) ،
٥ تفسير القرطبي (٦٤/١٣) .
٦ تفسير القرطبي (٣١٨/٩) .

لهم اتصال باليمن وباليمامة وبمعظم أنحاء جزيرة العرب . وأرى ان (مسيلمة) كان قد دعا الى عبادة الرحمن متأثراً بدعوة المتعبدين له ممن كان قبله على ما يظهر ، وهي عبادة إلـه اسمه (الرحمن) فعرف مسيلمة بـ (الرحمن) وبـ (رحمن اليمامة). وعبادة الرحمن ديانة متأثرة بفكرة التوحيد ، وبوجود إلـه واحـد هو (الرحمن) رب العالمين .

وقد أشير الى موضع اسمه (وادي الرحمن) في الكتاب الذي أعطاه رسول الله الى (يزيد بن المحجل) الحارثي ، ورد فيه : (ان لهم غرة ومساقيها ووادي الرحمن من بين غابتها)[1] . ولا أستبعد احتمال وجود صلة بين هذه التسمية وبين الرحمن الإلـه .

وقد وصف الرواة (مسيلمة) بأنه (كان قصيراً شديد الصفرة أخنس الأنف أفطس)[2] .

ويظهر من غربلة ما ذكره أهل الأخبار عن (مسيلمة) أنه كان أكبر عمراً من الرسول . وأنه كان قد تكهن وتنبأ باليمامة ووجد له أتباعاً قبل نزول الوحي على النبيّ . وأن أهـل مكة كانوا على علم برسالته . ويذكر أهل الأخبار أن (مسيلمة) كان ابن مائة وخمسين سنة حين قتل[3] . وهو عمر قـد بولغ فيه ولا شك ، إذ لا يعقل أن يكون في هذه السن يوم قتل ، فقد كان فعالاً نشيطاً ، نشاطاً لا يمكن أن يظهر إلاّ من رجل قويّ فعال ، هو دون المائة .

وكان (مُسيلمة) يدعي أن معه رئيّـاً في أول زمانه ، ولذلك قال الشاعر حين وصفه :

ببيضة قـارور وراية شادن وخلة جنّي وتوصيل طائر[4]

وكان (مسيلمة) في جملـة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد الرسول ، وفيهم (رحال بن عنفوة) . لكنه — كما يقول الرواة — لم يذهب مع الوفـد

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٢٦٨) ، (ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام) .
٢ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٣ الروض الانف (٢/٣٤٠) ، اليعقوبي (١/١٢٠) .
٤ الحيوان (٦/٢٠٥ وما بعدها) .

الى الرسول ، بل بقي مع رحال الوفد يبصرها لهم . فلما قرروا العودة ، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم ، قالوا : « يا رسول الله إنّا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا ، وفي ركابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : ليس بشرّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم ، فقيل ذلك لمسيلمة ، فقال : عرف أن الأمر إليّ من بعده . فلما عادوا الى ديارهم ، ادعى مسيلمة النبوة،وشهد (رحال بن عنفوة) (الرحال بن عنفوة) ، أن رسول الله ، أشركه في الأمر ، فتبعه الناس[1] . وكان (الرحال) قد تعلم سوراً من القرآن ، فنسب الى (مسيلمة) بعض ما تعلم من القرآن، فكان من أقوى أسباب الفتنة على (بني حنيفة) . قتله (زيد بن الخطّاب) ، يوم اليمامة[2] .

وذكر (الطبري) ، أن (مسيلمة) كان يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح . (وكان معه نهار الرجّال بن عنفوة) وكان قد هاجر الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً ، صلى الله عليه وسلم، يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكاتبة النبيّ ، صلى الله عليه وسلم ، ووعدوه إن هو لم يقبل أن يعينوه عليه ، فكان نهار الرجّال ابن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه ؛ وكان ينتهي الى أمره[3] . وكان الذي يؤذن له : عبدالله بن النوّاحة ، وكان الذي يُقيم له (حجير بن عمير) ، ويشهد له ، وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال : صَرّح حجير ، فيزيد في صوته ، ويبالغ لتصديق نفسه ، وتصديق نهار وتضليل مَنْ كان قد أسلم ، فعظم وقاره في أنفسهم[4] . فجعل (الطبري) اسم مساعد (مسيلمة) (نهار الرجال بن عنفوة) ، لا (الرحال بن عنفوة) (رحال بن عنفوة)

---

١ ابن سعد ، طبقات (١/٣١٦ وما بعدها) ، (وفد حنيفة) ، الطبري (٣/١٣٧ وما بعدها) ، (قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة) .

٢ الروض الآنف (٢/٣٤٠) .

٣ الطبري (٣/٢٨٢ وما بعدها) .

٤ الطبري (٣/٢٨٣) .

كما في الموارد الأخرى . لكنه عاد فدعاه (الرجال)[1] تارة و (رحال بن عنفوة) تارة أخرى ، حينما تكلم عنه وعن نهايته . وذلك في أيام (أبي بكر) ، أي في حوادث السنة الحادية عشرة[2] . وأظن أن مردّ هذا الاختلاف لا يعـــود الى (الطبري) نفسه ، بل الى النسّاخ والى الطبع .

وقد أورد (الطبري) رواية أخرى في كيفية قدوم (مسيلمـة بن حبيب) على رسول الله . فذكر (ان بني حنيفة أتت بمسيلمة الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تسنره بالثياب ، ورسول الله جالس في أصحابه ، ومعه عسيب من سعف النخل ، في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،فقال له رسول الله : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك!). ولم يشر (الطبري) الى أسماء من جاء معه من وفد (بني حنيفة) ، وقد ذكر بعد هذه الرواية الرواية السابقة التي ذكرتها،دون أن يشير الى أسماء رجال الوفد[3] . ثم قال بعد ذلك : (ثم انصرفوا عن رسول الله وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله ، فلما انتهى الى اليمامة ارتدّ عدو الله وتنبأ وتكذّب لهم ، وقال : إني قد أشركت في الأمر معه ، وقال لوفده : ألم يقل لكم رسول الله حيث ذكرتموني: أما انه ليس بشرّكم مكاناً ! ما ذلك إلا لما كان يعلم اني قد أشركت معه ، ثم جعل يسجع السجعات ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن : لقد أنعم الله على الحُبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى. ووضع عنهم الصلاة ، وأحلّ لهم الخمر والزنا ، ونحو ذلك)[4] .

ولا يتفق ما ذكره (الطبري) من وضع (مسيلمة) الصلاة عن أتباعه ، مع ما أورده هو من اتخاذه مؤذناً يؤذن بين الناس ، ومن اتخاذه (مقيماً) يقيم له الصلاة ، ثم مع ما ذكره غيره من انـه قلّص الصلوات الخمسة ، فجعلها ثلاثة صلوات في اليوم[5] . ولا يوجد دليل على تحليله الزنا والخمر .

وذكر ان (مسيلمة) ، بعد ان عاد الى قومه كتب كتاباً الى الرسول فيه :

---

١ الطبري (٣/٢٨٧) .
٢ الطبري (٣/٢٨١ ــ ٣٠١) ، (ذكر بقية خبر مسيلمة الكذاب وقومه مـــن أهل اليمامـة) .
٣ الطبري (٣/١٣٧) ، زاد المعاد (٣/٣١ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٣٨) ، زاد المعاد (٣/٣١) .
٥ Shorter Ency., p. 416.

(من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد ، فإني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوماً يعتدون) . فكتب اليه رسول الله : . (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، أما بعد ، فالسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين) . وقدم بكتاب مسيلمة رجلان ، فسألهما رسول الله عنه فصدّقاه ، فقال : أما والله لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكما[1] .

وتذكر رواية أخرى ان مسيلمة قال للرسول يوم وفد عليه مع من وفد من رجال (حنيفة) : (إن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على انه لنا بعدك . فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك) . وتذكر رواية أخرى ان (هوذة بن علي الحنفي) صاحب اليمامة ، قد كتب الى النبي ، أن يجعل له الأمر من بعده على ان يسلم ويصير اليه فينصره،فقال رسول الله : لا ولا كرامة اللهم اكفنيه ، فمات بعد قليل[2] .

وروي ان رسول الله ، بعث (حبيب بن زيد بن عاصم) أحد (بني النجار) و (عبدالله بن وهب الأسلمي) الى مسيلمة ، فلم يعرض لعبدالله ، وقطع يدي حبيب ورجليه[3] .

وذكر ان رسولي مسيلمة اللذين حملا كتابه الى الرسول ، كانا (ابن الفوّاحة) و (ابن أثال) ، وانهما قالا لرسول الله : نشهد ان مسيلمة رسول الله . فقال الرسول : لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما . فعادا الى صاحبهما[4] .

وذكر (الطبري) أن (مسيلمة) « ضرب حرماً باليمامة ، فنهى عنه ، وأخذ الناس به ، فكان محرّماً ، فوقع في ذلك الحرم قُرى الأحاليف ، أفخاذ من بني أسيد ، كانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم في الحرم) ، فصاروا يغيرون على ثمار أهل اليمامة . ويتخذون الحرم دغلاً ، فإن نذروا بهم فدخلوه أحجموا عنهم ، وإن لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون . » فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم ، فقال : انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم ، ثم قال لهم :

---

١ امتاع الاسماع (٥٠٨/١ وما بعدها) ، اليعقوبي (١٢٠/١) .
٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) ، (اليمامة) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٢) .
٤ زاد المعاد (٣٢/٣) .

والليل الأطحم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ، ما انتهكت أسيد من محرم . فقالوا : أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال ! ثم عادوا للغـــارة ، وعادوا للعدوى . فقال : انتظر الذي يأتيني ، فقال : والليل الدامس ، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس . فقالوا : أما النخل مرطبة فقد جدّوها ، وأما الجدران يابسة فقد هدموها ، فقال اذهبوا وارجعوا فلا حقّ لكم »[1] .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً زعموا أن (مسيلمة) نظمه مضاهـــاة للقرآن . مـــن ذلك قوله : « يا ضفدع نِقيّ كم تنقـــين ! نصفك في المـــاء ونصفك في الطين ! لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين »[2] . « وكان فـــيما يقرأ لهم فيهم : إن بني تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيينا بإحسان ، نمنعهم من كل إنسان ، فإذا متنا فأمرهم الى الرحمان »[3] . «وكان يقول: والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فمالكم لا تمجعون » . « وكان يقول : يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقّي مـــا تنقين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » . « وكان يقول : والمبذّرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهـل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه »[4] . وذكر بعض أهل الأخبار أن (أبا بكر) لما سأل وفداً من (بني حنيفة) أرسله (خالد) اليه عمّا كان يقوله لهم : « قالوا : كان يقول يا ضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنـــا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون »[5] .

ويظهر من أسلوب هذه الآيات المنسوبة الى (مسيلمة) ، انها محاكاة ومضاهاة للآيات الأولى من القرآن الكريم ، الآيات التي نزلت بمكة في عهد الرسالة الأولى.

---

١ الطبري (٣/٢٨٣) .
٢ الحيوان (٥/٥٣٠) .
٣ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٥ الطبري (٣/٣٠٠) .

وهي بذلك تختلف عن أسلوب الوحي المنزل بعد الهجرة بالمدينـــة[1] . ولم نجد فيما بقي من كتب أهل الأخبار ما يشير بشيء الى (قرآن مسيلمة) ، أو الى بقية أخرى منه .

هذا ولا بد لي من التنبيه الى اننا لا نستطيع التأكيد بأن ما نسب الى مسيلمة من كلام ، هو حق وصحيح . فمن الجائز أن يكون قد وضع عليه وضعاً . وقد رأينا كيف انهم اختلفوا في رواية (يا ضفدع) اختلافاً بينا في ضبط العبارات.

وكان الناس يقصدون (مسيلمة) ليسمعوا منه ، بعد ان اشتهر أمره . وقد تمكن من التأثير في بعضهم . وكان ممـن قصده (المتشمس بن معاوية) ، عم (الأحنف بن قيس) الشهير . فلما خرج من عنده قال عنه انه كذاب[2] . وقال عنه (الأحنف) ، وقد رآه أيضاً ، وقد سئل كيف هو ؟ ما هو بنبي صادق ، ولا بمتنبيء حاذق[3] .

وذكر أهل الأخبار ان مسيلمة كان صاحب (نيرجـات) وتمويه واحتيال . يدّعي المعجزات والآيات ، وانه أول من أدخل البيضة في القارورة ، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص ، وكان يدّعي ان ظبيـــة تأتيه من الجبـل فيحلب لبنها . وقد جربه قوم ، فوجدوا آياته (منكوسة . تفل في بئر قوم سألوه ذلك تبركاً ، فملح ماؤها . ومسح رأس صبي فقرع قرعاً فاحشاً ، ودعا لرجـــل في ابنين له بالبركة ، فرجع الى منزله ، فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذئب . ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضت عيناه)[4] ، ومسح وجه (أبا بصير) ، وهو صبي من (بني يشكر بن وائل) ، وكانوا أتوا به (مسيلمة) ، فعمي ، فكني (أبا بصير) ، وكان يروى عنه[5] . وأتته امرأة من بني حنيفة ، تكنى بأم الهيثم ، (فقالت : إن نخلنا لسحق وإن آبارنا لجرز، فادع الله لماثنا ولنخلنا ، كما دعـا محمد لأهل هزمان) ، فدعـا بسجل ، ودعا لهم فيه ، ثم تمضمض بفمه منه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرغوه في تلك

---

١ Shorter Ency., p. 416.
٢ المعارف (٤٢٤) .
٣ امالي المرتضى (١/٢٩٢) .
٤ الروض الآنف (٢/٣٤٠) .
٥ المعارف (٤٥٤) .

الآبار ، ثم سقوه نخلهم ، فغارت مياه تلك الآبار ، وخوى نخلهم . وقد ذكر (الطبري) هذه الملاحظة : (وانما استبان ذلك بعد مهلكه)[1] .

وروى (الطبري) ، أخباراً أخرى من هذا النوع ، ذكر ان (نهاراً) قال له : برك على مولودي بني حنيفة ، فقال له : وما التبريك ؟ قال : كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم المولود أتوا به محمداً فحنّكه ومسح رأسه ، فلم يؤت مسيلمة بصبي فحنّكه ومسح رأسه إلا قرع ولثغ . وذكر ان (نهاراً) قال له : توضأ واعطِ وضوءك الى أصحاب الحيطان ، أي البساتين كما يفعل محمد ، فأعطى أحدهم وضوءه ، فسقى به حائطه ، فيبست أشجاره ، وصارت الأرض يباباً لا ينبت مرعاها . وأعطى (مسيلمة) رجلاً سجلاً من ماء،وكانت أرضه سبخة ، فأفرغه في بئره ، فغرقت أرضه ، فما جف ثراها ، ولا أدرك ثمرها . وأتته امرأة فاستجلبته الى نخل لها يدعو لها فيها ، فجزت كبائسها يوم عقرباء كلها[2] .

وقد عرف (مسيلمة) بين أتباعه بـ (رسول الله) ، وكانوا يتعصبون له، ويؤمنون به إيماناً شديداً . وذكر أن (طلحة النميري) جاء الى اليمامة ، فقال: « أين مسيلمة ؟ قالوا : انه رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فلما جاءه. قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمن . قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنّك لكذّاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذّاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر » ، أو (أنه قال : كذّاب ربيعة أحبّ إليّ من كذّاب مضر) ، فقتل معه (يوم عقرباء)[3].

ويظهر من بعض ملاحظات (الطبري) عن هذه الأخبار ، أنها إنما ظهرت وقيلت بعد هلاك (مسيلمة) . فقد قال في موضع : « وكانوا قد علموا واستبان لهم ، ولكن الشقاء غلب عليهم »[4] ، وقال في موضع آخر : « وانما استبان ذلك بعد مهلكه » ، و « استبان ذلك بعد مهلكه »[5] . ولهذه الملاحظات أهمية كبيرة بالطبع في تقييم صدق هذه الروايات وصحتها ، فالعادة أن من يفشل ويهلك

---

١ الطبري (٣/٢٨٤ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٥ وما بعدها) .
٣ الطبري (٣/٢٨٦) .
٤ الطبري (٣/٢٨٦) .
٥ الطبري (٣/٢٨٥) .

لا سيما اذا كان قـد نال حظاً من المكانة والجاه والاسم ، يحمل عليه كثيراً ، ولا يتورع حتى أصحابه ومن كان يؤمن به من الدس عليه .

واتخذ (مسيلمة) مؤذناً يؤذن له في أتباعه اسمه (حجير) . (وكان أول ما أمر أن يذكر مسيلمة في الآذان ، توقف . فقال له محكم بن الطفيل : صرح حجير ، فذهبت مثلاً) . وكان (محكم بن طفيل الحنفي) صاحب حربه ومدبر أمره ، وكان أشرف منه في حنيفة[1] . وذكر (الطبري) ، أن الذي كان يؤذن له (عبدالله بن النوّاحة) ، وكان الذي يقيم له حُجير بن عمير ، ويشهد له . وكان مسيلمة إذا دنا حجير من الشهادة ، قال صرح حجير ، فيزيد في صوته ويبالغ لتصديق نفسه[2] . وذكر أن مؤذنه (حجير) ، كان إذا أذن يقول أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله ، فيقول مسيلمة له : أفصح حجير ، فذهبت مثلاً[3] .

ورووا أنه تزوّج (سجاح) التي تنبأت ، وهي تميمة من (بني يربوع) ، وكان يقال لها (صادر) وكان لها مؤذن ، يقال له (زهير بن عمرو) ، من (بني سليط بن يربوع) ، ويقال إن (شبث بن ربعي) أذّن لها[4] .

وذكروا أنها كانت كاهنة زمانها ، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد ، ثم جعلت ذلك الرئي ملكاً حتى ادعت النبوة ، فاختلفت مع (مسيلمة) وكذبته وجحدت نبوته ، فلما اتصلت به وتزوجته ، وهبت نفسها له . فقال لها فيما زعموا :

ألا قومي الى المخدع فقد هيّى لك المضجع
فإن شئت سلقناك وان شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

فقالت بل به أجمع . فجرى المثل بغلمتها حتى قيل أغلم من سجاح[5] .

---

١ الروض الآنف (٢/٣٤٠ وما بعدها) .
٢ الطبري (٣/٢٨٣) .
٣ البلاذري ، فتوح (١٠٠) .
٤ المعارف (٤٠٥) .
٥ ثمار القلوب (٣١٥ وما بعدها) .

وفيها قال قيس بن عاصم ، وقيل عطارد بن حاجب بن زرارة :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبيـاء الله ذكرانا
يا لعنـة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لاسقيت أصداؤه ماء مزن حيثما كانا [1]

ولما قتل (مسيلمة) رثاه بعض شعراء بني حنيفة بقوله :

لهفى عليك أبا ثمامـة لهفى عـلى ركني تهامة
كم آيـة لك فيهـم كالشمس تطلع من غمامة [2]

قتله (وحشي) قاتل حمزة [3] .

وذكر أهل الأخبار ان (مسيلمة) كان قد تزوج (كبشة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) [4] (كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس) [5] ، ثم تركها فخلف عليها (عبدالله بن عامر بن كريز) ، فولدت له . ويظهر انها لم تلد من (مسيلمة) .

والذي يقرأ ما ذكره (الطبري) عن (مسيلمة) وعن صلة (نهار) به ، يخرج بصورة تظهره شخصاً جاهلاً بليداً ، يحركه ويوجهه (نهار) حيث يريد ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعرف كيف يتصرف ، ولا يتخذ رأياً حتى يشير عليه (نهار) به . (فكان نهار الرجّال بن عنفوة لا يقول شيئاً إلا تابعه عليه) [6] . وهي صورة تخالف ما نقرأه عنه في الموارد الأخرى . ولو كان (مسيلمة) على نحو ما صوّره الطبري ، لما التفت حوله (بنو حنيفة) ، ولما استماتوا في الدفاع عنه . ولما ضحّى (الرحال بن عنفوة) و (محكم بن الطفيل) وغيرهما بأنفسهم

---

١ ثمار القلوب (٣١٥) ، المعارف (٤٠٥) .
٢ المعارف (٤٠٥) ، « كم آية لابيهم » ، الحيوان (٣٧٨/٤) .
٣ رسائل الجاحظ (١٨٠/١) ، الطبري (٢٩٤/٣ وما بعدها) .
٤ كتاب نسب قريش (٢٠) .
٥ الروض الآنف (١٩٨/٢ ، ٣٤١) ، (كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس) ، المحبر (٤٤٠) ، ، امتاع الاسماع (٢٤٧) ، كتاب نسب قريش (١٤٧) .
٦ الطبري (٢٨٣/٣) .

في الدفاع عنه . حتى ان منهم من بقي مؤمناً به حتى بعد مقتله ، وتغلب المسلمين على اليمامة .

وقد كتب الجاحظ قصة مسيلمة وقصة (ابن النواحة) ، ولعلّه قصد بـه (عبدالله بن النواحة) مؤذنه ، في كتابه المفقود حتى اليوم (فصل ما بين النبيّ والمتنبيّ) ، حيث ذكر جميع المتنبين[1] . وذكر (البلاذري) أن (مسيلمة) ، كان قد أرسل كتابه الذي كان وجهه الى الرسول والذي فيه (من مسليمة رسول الله ، الى محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون ، والسلام عليك . وكتب (عمرو بن الجارود الحنفي)، مع (عبادة بن الحارث) أحـد بني عامر بن حنيفة ، وهو (ابن النواحة) الذي قتله عبدالله بن مسعود بالكوفة[2] .

وكان (مسيلمة) قد أمر (عمرو بن الجارود الحنفي) ، بتدوين كتابه الذي وجهه الى الرسول ، فأمر الرسول كاتبه (أُبي بن كعب) بالردّ عليه . ومعنى هذا أن مسيلمة كان قـد اتخذ له كتبة يكتبون له رسائله ، على نحو ما كان لرسول الله .

وأنا لا استبعد احتمال علم (مسيلمة) بالكتابة والقراءة . وإن لم ينص أهل الأخبار على ذلك . كما لا استبعد احتمال التقائه باليهود وبالنصارى وأخذه منهم ، فقد كان في اليمامة قوم من أهل الكتاب ، ودعوته الى عبادة إلـه هو (الرحمن)، تدل على تأثره بأتباع هذه الديانة وبأهل الكتاب .

هذا ولم أجد في الأخبار المتعلقة بمسيلمة خبراً يفيد صراحة أن مسيلمة كان قد اعتنق الاسلام ودخل فيه . فالأخبار التي تتحدث عن مجيئه الى يثرب لا تشير الى ذلك ، والأخبـار الأخرى التي تتحدث عنـه وهو في اليمامة لا تشير الى قبوله الإسلام كذلك ، بل نجد فيها كلها أنه ظل يرى نفسه نبياً مرسلاً من (الرحمن) وصاحب رسالة ، لذلك فليس من الصواب أن نقول : (ردة مسيلمة) ، أو (ارتداد مسيلمة) ، أو نحو ذلك ، لأنه لم يعتنق الإسلام ثم ارتد عنه ، حتى ننعته بالمرتد .

---

١ الحيوان (٣٧٨/٤) .
٢ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

وكان (مجاعة بن مرارة) الذي نزل عليه (مسيلمة) ، من رؤساء (بني حنيفة). وممن وفد على الرسول ، فأعطاه النبي أرضاً باليمامة يقال لها (الغورة) ، وكتب له بذلك كتاباً . وذكر بعض أهل الأخبار انه كان بليغاً حكيماً وقد أسر (يوم اليمامة) ، فتوسط له بعض وجوه (بني حنيفة) ،لدى خالد أن يبقيه ، فأرسله الى (أبي بكر) ، فصفح عنه . وقد كان قد انجرف مع من انجرف فمال الى (مسيلمة) وأيده ، وحارب معه . وله شعر أشار فيه الى مسيلمة [1] ، ونعته فيه بـ (الكذاب) . ولما وفد على (أبي بكر) اقطعه (الخضرمة) ، ثم قدم على عمر ، فأقطعه الرياء ، ثم قدم على عثمان ، فأقطعه قطيعة أخرى[2] .

وأما (الرحال بن عنفوة) (رحّال بن عنفوة) ، فهو (نهار الرجال بن عنفوة)،(الرجّال بن عنفوة) في تأريخ الطبري[3] . وهو من وجوه(بني حنيفة) واسمه (نهار) ، وكان في الوفد الذي جاء الى الرسول ، وقد اختلف الى (أبيّ بن كعب) ليتعلم منه القرآن . وكان رئيس وفد (حنيفة) (سلمى بن حنظلة)[4] . وقد تعلّم سورة البقرة وسوراً من القرآن[5] . وذكر انه كان على غاية من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير ، ثم انقلب على عقبيه وصار من أشد أعوان مسيلمة المقربين له ، فشهد له ان الرسول أشركه معه في الأمر. وكان احد وفد (بني حنيفة) الى رسول الله ، وفيهم (فرات بن حيان)[6] .

وأما (محكم بن طفيل بن سبيع) الحنفي ، فقد كان من أشراف وسادات

---

١ قال مجاعة :

أترى خالدا يقتلنا اليو م بذنب الاصيفر الكذاب
لم ندع ملة النبي ولا نحـ ن رجعنا فيها على الاعقاب

(الاصغر) الاصابة (٣/٣٤٢) ، (رقم ٧٧٢٤) ، الحيوان (٤/٣٧١) ، (حاشية) المرزباني ، معجم (٤٧٢) ، الجاحظ ، البيان (٣/٢٦٣) ، « مجاعة بن مرارة بن سلمى بن زيد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع بن الدول بن حنيفة » ، كتاب الطبقات ، لخليفة بن خياط (٦٦ ، ٢٨٩) .

٢ البلاذري ، فتوح (١٠٣) .

٣ طبعة (دار المعارف) بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٤ ابن سعد ، طبقات (١/٣١٦) ، (وفد حنيفة) ، الروض الأنف (٢/٣٤٠) .

٥ البلاذري ، فتوح (٩٧) .

٦ الاصابة (١/٥٢١) ، (رقم ٢٧٦١) .

(بني حنيفة) . وهو أشرف من مسيلمة في حنيفة [1] . وكان من المقدمين عند مسيلمة . وقد عهد (مسيلمة) اليه قيادة احدى المجنبتين في قتاله مع (خالد ابن الوليد) . وقد عرف بـ (محكم اليمامة) . وقد قتل وهو يحارب المسلمين[2]. « قتله خالد بن الوليد يوم مسيلمة »[3] .

وأما (فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبد العزى بن حبيب) العجلي ، فكان عيناً لأبي سفيان في حروبه ، وكان ممن هجا الرسول ، ثم أسلم ومدحه،وأقطعه الرسول أرضاً باليمامة ، ثم سكن الكوفة وأقام بها . وكان في حرب الخندق عيناً للمشركين[4] .

وأما أثال بن النعمان الحنفي ، فكان مع (فرات بن حيان) حين قدم المدينة وقد كلّم الرسول . وذكر في رواية أنه كان مع ثمامة بن أثال في قتال مسيلمة في الردة[5] .

وكان (ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي) ، من قدماء من أسلم من أهل اليمامة . فقد أرسل رسول الله خيلاً قبل نجد ، فجاءت به ، فربطوه بسارية من سواري المسجد بيثرب ، فكلمه الرسول ، ثم امر فأطلق من رباطه ، فدخل في الإسلام ، وأمره ان يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ! قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة ، حتى يأذن فيها النبيّ . ثم خرج الى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا الى مكة شيئاً . فكتبوا الى النبيّ : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب الى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل اليهم[6] . وكانت ميرة قريش من اليمامة ومنافعهم منها، وكانت ريف مكة . ولما ارتد أهل اليمامة ، وصاروا مع مسيلمة ، ثبت أثال على الاسلام فكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ، فلما عصوه وأصفقوا على اتباع مسيلمة ، عزم على مفارقتهم ، ففارقهم ولحق بالعلاء بن الحضرمي في مقاتلة

---

١ الروض الأنف (٢/٣٤١) .
٢ الطبري (٣/٢٩٠) ، الاشتقاق (٢١٠) ، تاج العروس (٨/٢٥٤) ، (حكم) .
٣ اللسان (١٢/١٤٢) ، (حكم) ، تاج العروس (٨/٢٥٤) ، (حكم) .
٤ الاصابة (٣/١٩٥) ، (رقم ٦٩٦٦) .
٥ الاصابة (١/٣٣) ، (رقم ٣٥) .
٦ رشاد الساري (٦/٤٣٢ وما بعدها) .

المرتدين من أهل البحرين ، فلما ظفروا اشترى ثمامة حلة كانت لكبيرهم: (الحطم) فرآها عليه ناس من (بني قيس بن ثعلبة) ، فظنوا أنه هو الذي قتلـــه وسلبه فقتلوه . وقد رووا له شعراً في الرسول وفي الردة[1] . وكان له عم اسمه (عامر ابن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي) . وقد كان مسلماً[2] .

وجاء في رواية ان رسول الله لما بعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى في رجب سنة تسع ، فأسلم المنذر ورجع العلاء ، فمرّ باليمامة ، قال له ثمامة بن أثال : انت رسول محمد ؟ قال نعم . قال : لا تصل اليه ابداً ، فقال له عمه: عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفي : ما لك وللرجل ، فأسلم عامر ، ووقع ثمامة بعد ذلك في الأسر[3] .

وكان (معمر بن كلاب الرماني) ، جاراً لثمامة بن أثال ، وهو ممن وعظ مسيلمة وبني حنيفة ونهاهم عن الردة ، فلما عصوه تحول الى المدينة ، فمنعه ثمامة حتى ردّه وشهد قتال اليمامة مع خالد[4] .

و (الحطم) المذكور ، هو (الحطم بن هند) البكري ، أحد (بني قيس ابن ثعلبة) ، قدم المدينة في رواية في عير له يحمل طعاماً فباعه ، ثم دخل على النبي ، فبايعه وأسلم ، فلما قدم اليمامة ، ارتد عن الاسلام ، وخرج في عير له تحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة ، وكان عظيم التجارة ، وأراد المسلمون أن يتلقوه ويأخذوا ما معه ، فمنعهم الرسول من ذلك لحرمة الشهر . وذكر انه بعد ان قابل الرسول ، وسمع منه مبادىء الاسلام . قال الحطم : في أمرك هذا غلظة، أرجع الى قومي ، فأذكر لهم ما ذكرت ، فإن قبلوه أقبلت معهم ، وان أدبروا أدبرت معهم . قال له ارجع . فلما رجع مرّ بسرح من سرح المدينة، فساقه فانطلق به[5].

وذكر أن (الحطم) قتل في الجيار ، من نواحي البحرين ، لما ارتدت بكر ابن وائل[6] .

---

١ الاصابة (١/٢٠٤) ، (رقم ٩٦١) ، الاستيعاب (١/٢٠٥ وما بعدها) ، (حاشية على الإصابة) ، تاج العروس (٧/٢٠٣) ، (أثل) .
٢ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٣ الاصابة (٢/٢٤١) ، (رقم ٤٣٩٠) .
٤ الاصابة (٣/٤٧٥) ، (٨٤٥٢) .
٥ تفسير الطبري (٦/٣٨) .
٦ تاج العروس (٣/١١٦) ، (جير) .

هذا هو كل ما ورد الى علمنا عن الأنبياء العرب في الجاهلية . وقد حصلنا عليه من المؤلفات الاسلامية . أما نصوص جاهلية ، فيها شيء عن النبوة والأنبياء، فلم يصل الينا منها أي شيء .

يقول (أبو العلاء المعري) عن ادعاء بعض الناس بالأمامة والنبوة في الإسلام: « ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح الى رأي الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء . إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، وينظرون الى من زعم ذلك بعين الغبيّ »[1] . فهو ينكر وجود نبوة وأنبياء عند الجاهليين للسبب المذكور . وهو يقصد ولا شك بها، النبوة على وفق المعنى المفهوم منها في الاسلام . أي أن تكون بوحيّ ينزل على النبيّ من الاسلام ، وبكلام منزل يتلوه على الناس ، يكون كلام الله لا كلام النبيّ .

---

١ رسالة الغفران (٤٤٠) ، (بنت الشاطىء) .

obeikandl.com

الفصل الرابع والستون

الله ومصير الانسان

لا نعرف رأي الجاهليين في الخلق ، وفي كيفية نشوء هذا الكون، إذ لم تصل الينا نصوص جاهلية في هذا المعنى . ولا بد أن يكون لهم كما كان لغيرهم رأي في الخلق وفي نشوء الكون . فموضوع نشوء الكون وظهوره ، من الموضوعات التي تثير رأي كل انسان مهما كانت ثقافته وكان تفكيره .

وفي القرآن الكريم كلمات مثل (البارىء) و (المصور) و (الخلاّق) و (خلقنا) و (خلقت) و (خلقناكم) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان وبقية المخلوقات ، وفيه كيفية خلق الله للكون ومن فيه وكيفية خلق الانسان ومن أي شيء خلق. ولكن هل كان يعرف جميع الجاهليين هذا المعنى المنزل في كلام الله ، وهل نزلت هذه الآيات لإرشاد الناس الى ذلك، أو انها نزلت لتذكير القوم ولفت نظرهم الى شيء يعلمونه ولكنهم كانوا ينسبونه لغير الله أو يتجاهلونه ، إن كان ذلك على سبيل التذكير ، فمعنى هذا ان لأهل الجاهلية رأياً في كيفية الخلق ، وإن كان ذلك على سبيل التعليم والإرشاد ، فإنه يدل على أن من خوطب بتلك الآيات لم يكن له فقه وعلم بما خوطب به .

وفي القرآن الكريم آيات فيها خطاب للمشركين في بيان فساد رأيهم واعتقاداتهم ، وفيها ردّ عليهم ، منها نستطيع أن نحيط بعض الإحاطة بآرائهم في الوجود وفي البعث والحشر والحساب وغير ذلك من أمور تتعلق بدياناتهم . وهذه الآيات هي

الشواهد الوحيدة التي نملكها من آراء القوم في ذلك العهد. أما ما جاء في روايات الأخباريين وفي كتب التفسير والحديث والملل والنحل، ففيه بعض الشيء عن آراء الجاهليين القريبين من الاسلام، ولا سيما عرب مكة ويثرب عن تلك الأمور.

ويفهم من القرآن الكريم ان من الجاهليين من كان يعتقد ان للعالم خالقاً خلق الكون وسوّاه، وان منهم من كان يعتقد بوجود إلٰه واحد فهم موحدون، وان منهم من أقر بوجود إلٰه واحد غير انه رأى تعذر الوصول اليه بغير وسطاء وشفعاء فاعتقد بالأرواح وبالجن وعبد الأصنام لتكون واسطة تقربه الى الله[1].

أما كيف خلق الله الأرض والسماوات وكيف نشأ الكون، فذلك ما لم يتعرض له القرآن الكريم حكاية على لسان الجاهليين. ولذلك لا نعرف رأي أولئك القوم الذين عاصروا الرسول وعاشوا قبيل الاسلام في كيفية ظهور الوجود وخلق الكون.

ويفهم من بعض الأخباريين أن من الجاهليين من كان يرى أن خالقاً خلق الأفلاك، غير أنها تحركت أعظم حركة فدارت عليه وأحرقته، لأنه لم يقدر على ضبطها وإمساك حركتها، وأن منهم من كان يقول: «إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة الى الفعل. فإذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل، تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر. وقالوا إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله. وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه»[2]. وهذا كلام إن صح أنه من كلام الجاهليين ومن مقالاتهم، فإنه يدل على تعمق القوم في المقالات، وعلى أن لهم رأياً وفلسفة في الدين، وأنهم لم يكونوا على الصورة التي يتخيلها معظمنا عنهم، وهي الصورة التي رسمها لهم أهل الأخبار في أثناء كلامهم العام عن الجاهليين.

الله الخالق:

ويظهر من القرآن الكريم، أن قريشاً كانوا يؤمنون بإلٰه واحد خلق الكون، وهو رب السماوات والأرض. ففي سورة العنكبوت: «ولئن سألتهم من خلق

---

١ بلوغ الارب (٢/١٩٤ وما بعدها).
٢ بلوغ الارب (٢/٢٢٠ وما بعدها).

السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكـــون »[1] . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه الى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله ، قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون »[2] . وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه الى أولئك المشركين ، وجواب صادر منهم ، هو هذا الجواب نفسه : إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : الله . قل الحمد لله،بل أكثرهم لا يعلمون »[3] . وفي سورة الزخرف: « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن : خلقهن العزيز العليم »[4]. وفي سورة الزمر : « ولئن سألهتم من خلق السماوات والأرض ، ليقولن الله»[5]، وفي سورة الزخرف أيضاً : « ولئن سألتهم من خلقهم ، ليقولن : الله . فأنى يؤفكون »[6] ، وفي سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من نـزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ، ليقولن : الله »[7] . وهناك آيات أخرى عـلى هذا النحو ، فيها أسئلة موجهة الى المشركين عن خلق السماوات والأرض،وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أيضاً ان قريشاً كانت تعتقد ان الله هو الذي ينزل المطـــر ويحيي الأرض بعد موتها[8] ، وفيه انهـــم كانوا يقسمون به[9] ، وانهم كانوا قد جعلوا له نصيباً مما ذرأ من الحرث والأنعام[10] ، وانهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وانه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحداً[11]، وانهم كانوا يتضرعون اليه ويستغيثون به في الكوارث والملمات ، وانهم جعلوا له

---

١ سورة العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦١ .
٢ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٣ سورة لقمان ، الرقم ٣١ ، الآية ٢٥ .
٤ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٩ .
٥ الزمر ، الرقم ٣٩ ، الآية ٣٨ .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ٨٧ .
٧ العنكبوت ، الرقم ٢٩ ، الآية ٦٣ .
٨ العنكبوت ، الآية ٦٣ .
٩ الانعام ، الآية ١٠٩ ، النحل ، الآية ٣٨ .
١٠ الانعام ، الآية ١٣٦ .
١١ الانعام ، الآية ١٤٨ .

بناتاً وبنين وشركاء الجن[1] . فقريش اذن وفق هذه الآيات قوم ، كانوا يؤمنون بإلـه عزيز عليهم ، ومن آيات ذلك انهم جعلوا له نصيباً في أموالهم،مع ان المال من أعز الأشياء على الانسان ، لا سيما بالنسبة لتلك الأيام .

وفي تلبية الجاهليين المنصوص عليها في كتب أهل الأخبار اعتراف صريح واضح بوجود إلـه . كانوا يلبون بقولهم : (لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك . تملكه ومـا ملك ، يعنون بالشريك الصنم ، يريدون ان الصنم وما يملكه ويختص بـه من الآلات التي تكون عنـده وحوله والنذور التي كانوا يتقربون بها اليه كلها ملك لله عز وجل)[2] فذلك معنى قولهم : تملكه وما ملك . فهم يعترفون ويقرون بوجود الله ، لكنهم يتقربون اليه بالأصنام . وهذا هو الشرك .

وفي دعاء العرب اعتراف بوجود (الله) ، فقولهم : (رماه الله بما يقبض عصبه) ، و (قمقم الله عصبه) ، و (لا ترك الله لـه هارباً ولا قارباً) ، و (شتت الله شعبه) ، و (مسح الله فاه) ، و (رماه الله بالذبحـة) ، و (رماه الله بالطسأة) ، و (سقاه الله الذيغان) ، و (جعل الله رزقه فوت فمه) ، و (رماه في نيطه) ، و (قطع الله به السبب) ، و (قطـع الله لهجته) ، و (مدّ الله أثره) ، و (جعل الله عليها راكباً قليل الحداجة) ، و (لا أهدى الله له عافيـة) ، و (أثل الله ثلله) ، و (حتّـه الله حت البرمة) ، و (رماه الله بالطّلاطلة) ، و (رماه الله بالقصمل) ، و (ألزق الله به الحَوْبة) ، و (لحاه الله كما يُلحى العود) ، و (اقتثمه الله اليه) ، و (ابتاضه الله) ، الى آخر ذلك من دعاء يدل على وجود ايمان بخالق هو الله[3] .

وفي الشعر المنسوب الى الجاهليين اعتقاد بوجود الله ، واتقاء منـه ، وتقرب اليه باحترام الجوار وقرى الضيف . هذا عمرو بن شأس يقول في شعره :

---

١ الانعام ، الآية ١٠٠ .
٢ اللسان (١٠/٤٥٠) ، (شرك) .
٣ راجع بقيته في ذيل الامالي والنوادر (ص ٥٧ وما بعدها) ، (عود الى بحث دعاء العرب) .

ولولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيتـــه منى أبوك الليالـيـــا [1]

فلولا اتقـــاء شأس الله ، لفتك بخصمه ، وجعله من الهالكين . وفي بعضه اعتراف بأن هذه الأرض الواسعة هي (بلاد الله) ، أينما حللت فيها فهي أرضه وبلاده [2] . وهذه نظرة مهمة جداً عن رأي الجاهليين في الله وفي الأرض ، إن صح أن هذا الشعر الوارد فيه حقاً من شعر أهل الجاهلية .

و (الله) كما جاء في شعر زهير بن أبي سُلمى ، عالم بكل شيء، عارف بالخفايا وبالأسرار ، وبما ظهر من الأعمال وما بطن [1] .

فلا تكتمنّ الله مـا في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم [3]

وهو عدوّ للأشقياء شديد عليهم ، لا يرحم ظالماً ، وأمرهُ بُلْغٌ به تشقى به الأشقياء [4] وهو يثيب على الإحسان ، ويجزي المحسن على جميل إحسانه [5]. وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات [6] . وهو مقر بوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له [7] .

---

١ الاغاني (١٠/٦٢) ، نسب عمرو بن شأس وأخباره في هذا الشعر وغيره .
بدا لي أن الله حق فزادني الى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا
شرح ديوان زهير (٢٨٧) .

٢ فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ديوان عروة (٥١) .

٣ شرح ديوان زهير (١٨) .

٤ فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ يشقى به الاشقياء
اللسان (١٠/٣٠٢) ، (بلغ) ،
فهداهم بالاسودين وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
تاج العروس (٦/٤) ، (بلغ) .

٥ رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو
شرح ديوان زهير (١٠٩) .

٦ ومن ضريبته التقوى ويعصمه من سئى العثرات الله والمرحم
شرح ديوان زهير (ص ١٦٢) .

٧ فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير ، لثعلب (ص ١٢) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ ومابعدها) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٥١٨) ، جمهرة أشعار العرب (٧١) .

والله (كريم) لا يكدر نعمة ، اذا دُعي أجاب . وهذا هو رأي الأعشى في الرب ، اذ يقول :

ربّـي كريم لا يكدر نعمة واذا يناشد بالمهارق أنشدا [1]

وقد ورد اسم الجلالة في أشعار كثير من الشعراء الجاهليين : ورد في شعر امرىء القيس وغيره ، فامرؤ القيس يقول : (من الله) و (لله)[2] ، و (تالله)[3] ، و (قبح الله)[4] ، و (والله)[5] ، و (يمين الله) ، و (يمين الإلـه)[6] ، و (الإلـه) هي (الله) ، و (الحمد لله)[7] . ونرى العرب عامة تستعمل في كلامها : (لله دره)[8] ، و (لا يبعد الله)[9] ، و (لحى الله)[10] ،

---

١ ديوان الاعشى ، قصيدة ٣٤ (ص ١٥١) ، « تحقيق كاير » .

٢ فاليوم أشرب غير مستحقب اثما من الله ولا واغل
لله زبدان أمسى قرقرا جلدا وكان من جندك أصم منضودا
شرح ديوان امرىء القيس ، للسندوبي (ص ٦٣ ، ١٥٢) ، وسيكون رمزه : سندوبي .

٣ تالله قد علمت قيس اذا قذفت ريح الشتاء بيوت الحي بالعنن
شرح ديوان زهير (١٢١) .
يا لهف هند اذ خطئن كاهلا تالله لا يذهب شيخي باطلا
سندوبي (١٥٤) .

٤ ألا قبح الله البراجم كلها وجدع يربوعا وعفر دارها
سندوبي (١٨٠) .

٥ فقد أصبحوا والله أصفاهم به أبر بميثاق وأوفى بجيران
والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبير مالكا وكاهنا
سندوبي (١٥ ، ١٨٩) ، شرح ديوان زهير (٢٤) .

٦ كلا يمين الاله يجمعنا شئى وأخوالنا بنو جشما
سندوبي (١٨١) .

٧ أرى ابلي والحمد لله أصبحت ثقالا اذا ما استقبلتها صعودها
سندوبي (٦٤) .

٨ كم شامت بي ان هلكـ ـت وقائل : لله دره !
ديوان لبيد (ص ٢) ، « تحقيق كارل بروكلمن » .

٩ وقولي ألا لا يبعد الله أربدا وهدى به صدع الفؤاد المفجعا
ديوان لبيد (ص ٦) .

١٠ لحى الله صعلوكا اذا جن ليله مصافي المشاش آلفا كل مجزر
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
ديوان عروة بن الورد (٢٦ ، ٥٣) .

و (جزى الله)[1] ، و (عمر الله)[2] ، وأمثال ذلك مما يرد في أشعار الشعراء الجاهليين ، يخرجنا تدوينه وحصره في هذا المكان عن حدود الموضوع .

وقد جاءت لفظة الجلالة في ايمان أخرى ، في مثل : (لعمر الله) ، و (ها لعمر الله) كالذي ورد في شعر زهير :

تعلمن هـــا لعمر الله ذا قسماً فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك[3]

وورد (هـــا الله) و (والله) و (الله) و (نعم الله) و (أي والله لأفعلن) ، و (ايم الله) و (ايمـــن الله) و (يعلم الله) و (علم الله) وأمثال ذلك[4] .

ومن ايمانهم الدالة على الاعتقاد بوجود خالق ، قولهم : (لا وبارىء الخلق) ، و (لا والذي يراني من حيث ما نظر) و (لا والذي نـادى الحجيج له) ، و (لا والـــذي يراني ولا أراه) ، و (لا والذي كل الشعوب تدينـــه) ، و (حرام الله لا آتيك) ، و (يمين الله لا آتيك) ، و (لا والذي جـــلد الإبل جلودها) ، و (والذي وجهي زمم بيته) ، و (لا والـــذي هو أقرب إليّ من حبل الوريد) ، و (لا ومقطع القطر) ، و (لا وفالق الإصباح) ، و (لا ومهب الرياح) و (لا ومنشر الأرواح)[5] ، الى غير ذلك من ايمان حلفوا بها ، تدل على إيمان وعقيدة بوجود خالق ، فحلفوا به .

ونجد في معلقة امرىء القيس قسماً بالله حكي على لسان صاحبة صاحب المعلقة :

فقالت : يمين الله ما لك حيلة وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[6]

وترى في بيت لامرىء القيس وهو يذكر اقدامه على الشرب :

فاليوم أسقى غير مستحقب إثمـــاً من الله ولا واغل[7]

---

١ جزى الله خيرا كلما ذكر اسمه أبا مالك ان ذلـــك الحي اصعدوا
ديوان عروة (ص ٥٠) .

٢ قعيدك عمر الله ، هل تعلميننني كريما اذا اسود الانامل أزهـــرا
ديوان عروة بن الورد (٢٢) ، Reste, S. 224.

٣ السنن الكبرى (٢٦/١٠ وما بعدها) ، المخصص (١١٣/١٣) .

٤ المخصص (١١٤/١٣ وما بعدها) .

٥ ذيل الامالي (ص ٥٠ وما بعدها) .

٦ المعلقات العشر وأخبار شعرائها (٦٢) .

٧ شعراء النصرانية (١٩) .

فالرجل مؤمن بالله ، وقد وفى بما عاهد الله عليه ، وهو لا يخشى بعد ذلك إثماً اذا شرب ، لأنه وفى بنذره .

ونراه يذكر الله أيضاً في هذا البيت :

لله زبدان أمسى قرقراً جلداً وكان من جندل أصم منضودا [1]

ثم نراه يشكر الله بجملة : (والحمد لله) في هذا البيت :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها

ونراه يحث الناس على التمسك بحبل الله ، فبالله يكون النجاح ، ويحث الناس على عمل البر ، والبر خير حقيبة الرجل :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

ونفهم من هذه الأبيات ومن أبيات أخرى ، إن امرأ القيس رجل مؤمن يعتقد بالله الواحد ، مؤمن بالله الواحد ، مؤمن بالثواب وبالعقاب ، وأنه كان يخاف الله ويخشى الإثم والفسوق ، ولا أدري أينطبق هذا الذي نقوله على امرىء القيس الذي يتحدث عنه أهل الأخبار ويصفونه بأنه رجل عابس ميّال الى اللهو والشهوات رمى صنمه بسهم وأنّبه لما جاء الجواب بخلاف ما كان يرغب فيه ويشتهيه . ثم لا أدري اذا كان اسلوب هذا الشعر من أسلوب الشعر الجاهلي وطرازه ؟ وإذا كان هذا الشعر صحيحاً ، فلمَ أدخل رواته شاعره في الجاهليين الوثنيين ولم يدخلوه في عداد المؤمنين بالله من الأحناف ؟

وإذا اعتقدنا بصحة الأبيات المنسوبة الى عَبيد بن الأبرص :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علاّم ما أخفت القلوب

وقلنا مع القائلين إنها من شعر ذلك الشاعر حقاً ، وجب عدّه إذن في جملة

---

١ شعراء النصرانية (٤٠) .

الموحدين المؤمنين المسلمين ، وإن عاش قبل الإسلام . فرجل يقول هذا القول ، لا يمكن إلاّ أن يكون مسلماً مؤمناً بالله الواحد الأحد علاّم الغيوب والعارف بما في القلوب ، ومن الممهدين للتوحيد بين العرب قبل الإسلام .

وقد أهمل بعض رواة هذه المعلقة البيت الآتي :

والله ليس لـــه شريك علام ما أخفت القلوب

وكأنهم فطنوا الى ان من غير المعقول نسبته الى رجل وثني ، مهما كان رأيه في الأوثان والتوحيد ، لا يمكن أن يستعمل هـذه الألفاظ التي لم يستعملها العرب بهذا الشكل إلا في الاسلام .

والى عبيد نفسه ينسب الأخباريون قول هذا البيت :

حلفت بالله إنّ الله ذو نعم لمن يشاء وذو عفوٍ وتصفاح

ورجل يقول هذه الأبيات وأبياتاً أخرى من لونها ، لا يمكـــن إلا ان يكون موحداً مؤمناً ، من فصيلة المؤمنين بالله من الأحناف . وقد أراح (شيخو) نفسه وأراح الناس حين ذهب الى ان عبيداً وأمثاله من الشعراء الجاهليين كانوا نصارى وان هذا التوحيد هو توحيد نصراني محض ، وقف عليه عبيد في زيارتـه للحيرة مهد النصرانية في ذلك العهد ، فاعتنقه ، فهو على رأيه اذن شاعـــر نصراني ، وشعره شعر نصراني لا يرد ولا يرفض .

ونجد (طفيل بن عوف) الغَنَوي يقسم بـ (الإلَه) في شعره . غـير أن هناك رواية تضع (رضى) موضعَ (الإلَه) فيكون القسم بـــه ، ورضى اسم صنم كان لطيء[1] . وقد ذكر (الله) في مواضع أخرى من شعره ، وقال إنه هو الذي يصلح الأمور ، ويسد العجز والثُغر التي ليس في وسع الإنسان سدّها[2] ،

---

١ « فقال بصـــير يستبين رعالهـــا هم والالـه من تخافـين ، فاذهبي
ويروي ، ولعلها رواية أبي عبيدة :
وقال بصـــير قـد أبان رعالهـــا فهي ورضى من تخافين ، فاذهبـــي
ورضى اسم صنم كان لطيء ، ديوان طفيل بن عوف الغنوي « تحقيق ف. كرنكو » (لندن ١٩٢٧) ، (ص ١٢) .

٢ لعمري لقد خلى ابن جيدع ثلمـــة فمن أين ان لم يرأب الله تـــرأب
ديوانه (ص ١٩) .

وإنه يجزي الناس على أعمالهم[1] .

وفي معلقة (الحارث بن حِلِّزة) اليشكريّ : « أمر الله بلغ تشقى به الأشقياء »[2] ، وأن الله عالم بالأمور[3] .

ونجد (المتلمس) ، يُقسم بالله في شعره ، ويذكر الله في مثل جملة (أبى الله)[4] للتعبير عن مشيئة الله وإرادته ، وجملة (لله دري) في التعجب[5] وجملة (تقوى الله)[6] ، و (عاداك الله)[7] وغيرها مما يدل على أنه كان يعتقد أن الله يعادي الأعداء ويحبّ المحبين .

ولكننا نجده في مواضع أخرى يقسم باللات وبالأنصاب ، والمقصود بالأنصاب الأوثان مما يشعر أنه كان يؤمن بها ، فكيف نوفق بين اعتقاده بالله واعتقاده باللات

---

١ جزى الله عوفا من موالي جنابة ونكراء خيرا كل جاد مودع
ديوانه (ص ٥٠) .
جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
ديوانه (ص ٥٧) .

٢ فهداهم بالاسودين ، وأمر الله بلغ تشقى به الاشقياء
شرح القصائد العشر (٤٦٨) ، (البيت رقم ٦٢) من المعلقة .

٣ وفعلنا بهم كما علم الله وما ان للخائنين دماء
البيت (رقم ٧٥) من المعلقة ، (ص ٤٧٥) من شرح القصائد العشر للتبريزي (محمد محيي الدين عبد الحميد) .

٤ يا آل بكر ألا لله احكموا طال الله الثواء وثوب العجز ملبوس
ديوان المتلمس (ص ١٦٩) ، (طبعة فولرس) ، جمهرة أشعار العرب (ص ٤٤ ، ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٣٢) .
وقال :
وهل لي أم غيرها ان تركتها أبى الله الا أن أكون لها ابنا
شعراء النصرانية (٣٣٨) .
وقال :
اطردتني حذر الهجاء ولا والله والانصاب لا نثل
وذلك في رواية . وفي الروايات الشائعة « واللات » بدلا من والله ، ديوان المتلمس (١٧١) .

٥ تفرق أهلي من مقيم وظاعن فلله دري أي أهلي أتبع
ديوان المتلمس (ص ١٨٧) .

٦ وأعلم علم حق غير ظن وتقوى الله من خير العقاد
ديوان المتلمس (ص ١٩٥) ، شعراء النصرانية (٣٤٣) .

٧ لا خاب من نفعك من رجالها بلا وعادى الله من عاداكا
ديوان المتلمس (ص ٢٠٦) ، شعراء النصرانية (٣٤٨) .

والأنصاب ؟ وهل نعدّ هذا الشعر صادراً من شاعر واحد ؟ نعم ، يجـوز أن يكون قاله هو . قاله لأنه كان يعتقد بوجود إلـه ، فهو يؤمن به ويقر بوجوده، غير أن قسمه باللات والأنصاب ، هو من باب عقيدة الجاهليين المؤمنين بوجود إلـه ، ولكنهم كانوا يتقربون اليه بالأصنام والأوثان والأنصاب . ويتوقف هـذا التفسير بالطبع على اثبات أن هذا الشعر له حقاً ، وليس مفتعلاً ، ولا مما أدخل الرواة عليه تغييراً أو تبديلاً .

ونجد في شعر النابغة الجعدي ، أبو ليلى عبـدالله بن قيس ، الشاعر المخضرم المتوفى سنة (٦٥) للهجرة ، قصيدة مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

يلي هذا المطلع قصة نوح والسفينة ، وهي سفينـة مصنوعة من خشب الجوز والقار . وفي هذه القصيدة اعتراف بالتوحيد ، وبوجود إلـه واحد لا شريك له ، لا يحمد إلا هو ، وهو شعر لا يمكن أن يكون إلا من شعر شاعر مسلم،إن صح انه من شعره ، فيجب أن يكون مما نظمه في الاسلام .

وينسب الى (لبيد) اعتقاده ان الله يبسط الخير والشر على عباده ، وانه منتقم ممن يخالفه ، معاقب له ، كما عاقب (إرما) و (تبعا) ، وقوم (لقمان بن عاد) ، و (أبرهة) وذلك في أبيات أولها :

من يبسط الله عليه إصبعاً بالخير والشر بأي أولعا

وهي رجز ، يرى بعض العلماء انها ليست من رجزه[1] .

ونجد معود الحكماء ، وهو معاوية بن مالك بن جعفر ، يذكر الله ويحمده ، فيقول : « بحمد الله » ، ويقول (عامر) : « أردت لكيما يعلم الله انني » ، ويقول (خداش بن زهير) : « وذكرته بالله بيني وبينه »[2] .

---

١ ديوان لبيد (٣٣٧ وما بعدها) .

٢ شرح ديوان لبيد ، (ص ٢١) ، (المقدمة) ، (تحقيق الدكتور احسان عباس) ، قيل له معود الحكماء لقوله :

أعـود مثلها الحكماء بعـدي اذا ما الحق في الاشياع نابـا

تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .

وذكر أهل الأخبار ان الجاهليين الوثنيين كانوا يفتتحون كتبهم بجملة (باسمك اللهم) . ساروا في ذلك على هدى (أمية بن أبي الصلت) مبتدعها وموجدها ، كما في رواية تنسب الى ابن الكلبي . وذكر بعض آخر ان قريشاً كانت تستعمل هذه الجملة منذ عهد قبل الاسلام ، وانها بقيت تستعملهـا الى ظهور الاسلام . وقد استعملها الرسول ، ثم تركها ، وذلك بنزول الوحـي باستعمال (بسم الله الرحمن الرحيم)[1] . ونحن لا يهمنا هنا اسم مبتدع هذه الجملة ، وانما الذي يهمنا منها هو ما فيها من عبارة تدل أيضاً على التوحيد . فإذا صح ان الجاهليين كانوا يستعملون هذه الجملة ، فإن استعمالها هذا يدل على اعتقاد القوم بإلـه واحد ، أي بعقيدة التوحيد ، ولا يعقل بالطبع استعمال شخص لهذه الجملة في رسائله ، يفتتح بها كتبه ، لو لم يكن من أصحاب عقيدة التوحيد ، وقد جاء في بعض الأخبار ان هذا الاستعمال متأخر ،وانه حدث بعد ان تغيرت عوائد القوم في افتتاح كتبهم ، فقد كانت عوائدهم القديمة افتتاح رسائلهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ، فرفعوا تلك الافتتاحيات القديمة واستبدلوا بها هذه الجملة الجديدة ، جملة (باسمك اللهم) . وعلى كل ، فإن جملة (باسمك اللهم) وأمثالها إن صح انها من ذلك العهد حقاً فإنها تدل على حدوث تطور في الحياة الدينية عند الجاهليين . وإلا ،فكيف يتصور استعمال هذه الجملة الموحدة مع وجود الشرك لو لم يكن قـد حدث تطور فكري كبير في هذا العهد حملهم على استعمال هذه الجملة وأمثالها من الجمل والألفاظ الدالة على التوحيد[2] ؟

وقد درس بعض المستشرقين هـذا الموضوع ، ولا سيما موضوع ورود اسم الجلالة في الشعر الجاهلي ، فذهبوا في ذلك مذاهب . منهم من أيد صحة وروده في ذلك الشعر ، وآمن أن الشعر الذي ورد فيه هو شعر جاهلي حقـاً ، ومنهم من أنكر ذلك ، وأظهر أنه شعر منحول مصنوع ، صنع على الجاهليين فيما بعد ، ومنهم من ذهب الى أنه شعر صحيح ، غير أن رواة الشعر أدخلوا اسم الجلالة فيه ، ولم يكن هو فيه في الجاهلية ، بأن رفعوا أسماء الأصنام وأحلوا اسم الله محلها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٥) ، تاج العروس (٩/٤١١) ، (لاه) .

٢ « دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم » ، الطبري (٢/٦٣٤) ، (صلح الحديبية) .

وبينما نجد أهل الأخبار ينسبون الى هؤلاء الشعراء وأمثالهم الاعتقاد بالله، نجدهم ينسبون اليهم ، الحلف بالأصنام ، والاعتقاد بها . فقد نسبوا الى (خداش بن زهير) شعراً آمن به بالله ، ثم نسبوا له قوله :

وبالمروة البيضاء يوم تبالة ومحبسة النعمان حيث تنصرا

والمروة البيضاء، هي ذو الخلصة ، ثم هو يقسم بمحبسة النعمان ، وهو نصراني[1]. أفلا يدل هذا على وجود تنافر أو تناقض في عقيدة أمثال هؤلاء الشعراء ؟ والذي لا وقوف له على طبائع أهل الجاهلية ، يرى هذا الرأي ، أو يذهب الى أن هذا الشعر مصنوع مفتعل . أما الذي يعرف عادة العرب في القسم ، فلا يستغرب منه ولا يرى فيه تنافراً ، فقد كان الجاهليون يقسمون بكل شيء ، يقسمون بالشجر وبالحجر وبالكواكب ، وبالليل وبالنهار ، وبالأصنام ، وبعمر الإنسان وبحياتهم وبلحى الرجال ، وبالأصنام وبالمعابد ، وبالله ، وبالخبز والملح ، لا يرون في ذلك بأساً ولا تناقضاً مع عقيدتهم . هذا (عديّ بن زيد) العبادي ، يقسم بمكة ، وهو نصراني ، لا يري للكعبة في دينه حرمة ولا مكانة . أقسم بها على قاعدة العرب في القسم ، وقد أقسم بأمور أخرى من أمور أهل الجاهلية الوثنيين، ولم يذكر أحد أنه بدل دينه ، وصار وثنياً . وكذلك الأمر مع غيره من شعراء نصارى ويهود وعبّاد أصنام ، أقسموا برهبان النصارى وبأمور نصرانية ، مع أنهم كانوا عبّاد أوثان .

ومن القائلين بالرأي الأخير ، (نولدكه) . فقد ذهب الى ان رواة الشعر وحملته في الاسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلّوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم (اللات) حل محله اسم (الله)[2] . وقد ذهب أيضاً الى ان رواة الشعر في الاسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لم يتفق مع عقيدتهم ، وما وردت فيه أسماء الأصنام . ومن جملة ما استدل به على أثر التغيير والتحريف في الشعر الجاهلي ورود كلمة (الرحمان) في شعر شاعر جاهلي من هذيل ، زعم ان ورود هذه الكلمة في هذا الشعر دليل

---

١ شرح ديوان لبيد (٢١) .

٢ Nöldeke, Beiträge, S. IX, ff.

كاف لاثبات أثر التلاعب فيه ، لأن هذه اللفظة اسلامية استحدثت في الاسلام ، ولا يمكن أن ترد في شعر شاعر جاهلي[1] . وقد فات (نولدكه) صاحب هذا الرأي ان الكلمة بهذا المعنى كلمة جاهلية ، وردت في نصوص المسند وفي نصوص جاهلية أخرى ، وان من جملة من استعملها (أبرهة) الحبشي في نصه الشهير المعروف بنص سد مأرب ، وان قوماً من الجاهليين تعبدوا للرحمان ، على نحو ما تحدثت عن هذه العبادة في موضع آخر من هذا الكتاب .

وادعاء أن لفظة (الله) لم تكن موجودة في الأصل ، وإنما أقحمت فيه من بعد ، وذلك بإزالة رواة الشعر لأسماء الأصنام التي ذكرها أولئك الشعراء ، واحلالهم اسم الله في محلها ، حتى ظهر ذلك الشعر وكأنه شعر شعراء موحدين يعتقدون بوجود إلٰه واحد[2] . هو تعليل فيه شيء من التكلف ، فليس كل شعر فيه اسم الأصنام بصالح لقبول الجلالة ، فقد لا يستقيم من حيث الوزن أو المعنى بإدخال تلك اللفظة في موضع اسم الصنم . ثم إن من الشعر الجاهلي المروي في الإسلام ما بقي محافظاً على اسم الصنم دون أن يمس ذلك الاسم بسوء . ولو كان من عادة الرواة حذف اسم الأصنام عامة لما تركوا لها بقية في الشعر . ثم ما هي الفائدة التي يجنيها الرواة من طمس أسماء الأصنام ، وهم يعلمون أن أهل الجاهلية كانوا وثنيين ، يدينون بالأصنام ، وكانوا يقسمون بها ، وقد رووا أمثلة من ذلك القسم !

أما (ولهوزن) ، فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي إلاّ في النادر وإلا في حالة القسم أو في أثناء الإشارة الى صنم ، أو موضع عبادة ، ليس بسبب تغيير الرواة الاسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام . وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم في عدم الإسراف والإسفاف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة (الله) التي لم تكن تعني إلهاً معيناً ، وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإلٰه . ومن هنا كثر استعمالها في القسم وفي التمني أو التشفي وأمثال ذلك من حالات[3] .

Nöldeke, Beiträge, S. X.

Werner Caskel, Das Schiksal im der Altarabische Poesie, Leipzig, 1926, S. 8, Goldziher, Abhandlungen, II, S IX-LXXVI, Ahlwardt, Bemerkungen über die Achtheit der Aletn Arabischen Gedischte.

Reste, S. 217. ff.

ويرى (ولهوزن) أن لفظة (الله) كانت بهذا المعنى في الأصـــل . كانت تعني إلهاً على وجه التعميم ، دون التخصيص ، أي أنها لا تشير إلى إلـه معين . استعملتها كل القبائل بهذا المعنى ، فهي صفة تشير الى الألوهيـة المجردة ، وإن كان أفراد كل قبيلة يقصدون بها صنمهم الخاص بهم . استعاضوا بهـا عن ذكر اسم الصنم . وان استعمالها جملاً مثل : (حاشا لله) و (لله درك) و (لاها الله) ، و (تالله) ، و (ايم الله) ، و (لحا الله) ، و (جزى الله) ، و (جعلني الله فداك) ، و (لك الله) ، و (أرض الله) ، وأمثالها ، هو من هذا القبيل ، الله فيها بمعنى الرب والإلـه . ولما كانت أداة التعريف تفيـــد التخصيص ، فدخولها في اسم الجلالة أفاد التخصيص والعلمية . وهذا ما حدث ، إذ فقدت الكلمة معناها العام ، واتجهت نحو التخصص حتى صارت بهـذا المعنى الذي صارت عليه في الاسلام[1] .

وقد ذهب مستشرقون آخرون الى صحة ورود لفظة الجلالة في الشعر الجاهلي . كما ذهبوا الى ان ورودها في القرآن الكريم أو في الحديث ، لا يمنع من ورودها في الشعر الجاهلي ، ولا يكون سبباً للطعن في ذلك الشعر ، لأن من الجاهليين من كان يؤمن بوجود إلـه هو فوق الآلهة عندهم ، فورود اسمه في شعرهم ، ليس بأمر غريب .

وورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين يحملنا على البحث في أصله : هل هو اسلامي محدث ، أو هو اسم جاهلي قديم ؟ وبحث مثل هـذا يجب ان يستند الى النصوص . غير اننا ويا للأسف لا نملك نصاً جاهلياً يمكن أن يفيدنا في هـــذا الباب ، فكل النصوص الجاهلية التي وصلت الينا خُرس لم تنطق بشيء عن اسم الجلالة ، فليس أمامنا إلا اللجوء الى الطريقة المألوفة في مثل هذه الأحوال ، وهي الرجوع الى آراء علماء اللغة ، والى المقابلة بين العربية واللهجات السامية الأخرى . أما آراء علماء اللغة ، فإنها مثل آرائهم الأخرى في أصول الكلمات الصعبة التي على شاكلتها ، كلها حدس وتخمين . ولا يمكن أن يُستنبط منها شيء تأريخي ، يرجعك الى أول عهد ظهرت فيه هذه اللفظة ، والى المراد منها . وأما المستشرقون ، فمنهم من يرى ان اللفظة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى انها من (ألاها) Alaha

---

١ Reste, S. 218.

ومعناها (الإلـه) بلغة (بني إرم) . أما الذين قالوا بعربيتها ، فيرون انها من (اللات) ، اسم الصنم المعروف ، تحرف وتولد منه هذا الاسم[1] .

واللفظة (الله) من أصل (إلاه) ، أي (رب) ، و (بعل) ، وهي من الألفاظ السامية القديمة . ويقال (إلهة) (إلاهة) للأنثى . لأن من الجاهليين من تعبد للآلهة الأناث . وتقابل (ه ــ اله) (ها الاه) (ه الاه) في النصوص الثمودية ، آي (الله)[2] . كما ترد هذه اللفظة في نصوص عربية أخرى مثـل النصوص اللحيانية .

ويلاحظ ان لفظة (الله) هي من التسميات التي وردت في النصوص الشمالية ، ويدل ورودها في هذه النصوص على تأثر العرب الشماليين بمـن اختلطوا بهم من الشعوب التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، وأخذهم عبادة هذا الإلـه منهم. ولم تكن هذه اللفظة اسم علم في الأصل ، ثم تخصصت على ما يظهر من النصوص المتأخرة ، فصارت تدل على إلـه معين ثم على إلـه واحد أحد هو إلـه الكون في الاسلام .

ويذكر علماء اللغة ان (لاه) الله الخلق يلوهم خلقهم ، واللآهة الحية ، منها سمّي الصنم اللات بها ، وجوز (سيبويه) اشتقاق اسم الجلالة منها . قال الأعشى :

كدعوة من أبي كبار يسمعها لاهه الكبـار

ولاه : علا وارتفع . وسميت الشمس إلاهة لارتفاعها في السماء[3] . وذكـروا ان (ال) اسم الله ، وكل اسم آخره ال أو ايل ، فمضاف الى الله ، ومنـه جبرائيل وميكائيل[4] ، فهو (ايل) اذن ، إلـه جميع الساميين القديم .

وتعداد المواضع التي وردت فيها لفظة الجلالة أو لفظـة إلـه والإلـه في الشعر الجاهلي ، يخرجنا عن صلب الموضوع ، ويجعل البحث جافاً مملاً . غير أن في استطاعتنـا أن نقول إنها وردت في أكثر ذلك الشعر إن لم نقل فيه كله . وأن ورودها فيه يشير الى اعتقاد أصحاب ذلك الشعر بإلـه واحد قهّار هو إلـه العالمين.

---

١ Ency. Religi., I, p. 661, Ency., I, p. 302.

٢ Reste, S. 209, Mission, II, p. 557, 559, 564, Grohmann, S. 87. ff.

٣ تاج العروس (٩/٤١٠) ، (لاه) ، (٩/٣٧٤) ، (اله) .

٤ تاج العروس (٧/٢١١ وما بعدها) ، (أل) .

غير أن هذا القول يتوقف بالطبع على إثبات أن ذلك الشعر هو شعر جاهلي حقاً ، وأن من نسب اليهم قالوه من غير شك، وأنه لم يوضع على ألسنة أولئك الجاهليين .

الاعتقاد بإله واحد :

والـــذي يفهم – وذلك كما سبق أن قلت – من القرآن الكريم ومن الحديث أن قريشاً ومن كان على اتصال بهم ، أو غيرهم من قبائل أخرى ، لم يكـونوا ينكرون عبـــاده الله ، ولم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يقرون بوجوده ، ويدينون له ، وإنما الذي أنكره الإسلام عليهم وحاربهم من أجله وسفه أحلامهم عليه ، هو تقربهم الى الأصنام والأوثان ، وتقديسهم لها تقديساً جعلهـــا في حكم الشركاء والشفعاء ومرتبـــة الألوهية . والاسلام لا يعترف بهـــذه الأشياء ، وهو ينكرها ، ومن هنا حاربته قريش ومن كان على هذه العقيدة من حلفائهـــا ومن القبائل التي كانت ترى رأيها . فهنا كان موطن الخلاف ، لا عقيدة الإيمان بالله[1].

وإذا أخذنا بهذا الرأي ، رأي اعتقاد الجاهليين أو بعضهم بإلـه واحد ، نكون بذلك قد حللنا عقدة الازدواجية ، أي العقيدة الثنائية عند الجاهليين ووجودها في شعرهم ، فلا نجد عندئذ غرابة إذا وجدنا شاعراً يذكر الله في شعره ويحلف به، ثم نجده يذكر الأصنام في الشعر نفسه ، ويقسم بها قسمه بالله .

ويكاد يكون الاجماع على ما تقدم . قال ابن قيم الجوزية في معرض مقارنته بين آراء المجوس وعبدة الأوثان من العرب : « بل كفر المجوس أغلظ . وعبّاد الأوثان كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم الى الله سبحانه وتعالى ، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر للشر كما تقوله المجوس »[2] . فالوثنية على هذا الرأي، ليست نكراناً لوجود إلـه ، وإنما هي اعتقاد بوجوده ، واعتقاد بفائدة التقرب اليـــه ، بتقربهم الى الأصنام والأوثان ، أي الشفعـــاء ، بما في ذلك المبالغة في تقـــديس الأشخاص والقبور .

---

١ Reste, S. 217, Lyall, Ancient Arabian Poetry, p. XXIX.

٢ زاد المعاد (٣/٢٢٤) ، (فصل في حكمه في الجزية ومقدارها وممن تقبل) .

ولا نجد للعرب إلهاً قومياً خاصاً بهم كالذي نجده عنـــد العبرانيين من تعلقهم بـ (يهوه) ، وعدهم اياه إلهاً خاصاً باسرائيل . فقد صار هذا الإلـه إلـه جميع قبائل اسرائيل ويهوذا . أما العرب ، فقد كانوا يعبدون جملة آلهة : كل قبيلة لها إلـه خاص بها وآلهة أخرى ، ولم يكن لها إلـه واحد له اسم واحد يعبده جميع العرب . والظاهر ان القبائل الساكنة في الحجاز ونجد والعراق والشأم، صارت قبيل الاسلام تتنكر لأصنامها العديدة ، وتأخذ بالتوحيد وبالاعتقاد بإلـه واحد هو الله، وهو الذي نجده في هذا الشعر الجاهلي الذي هو حاصل تغريد شعراء قبائل عديدة مما يدل على ان قبائل اولئك الشعراء دانوا بالاعتقاد بوجود ذلك الإلـه فوق الأصنام والأوثان ، وقد توّجت هذه العقيدة بتاج النصر في الاسلام . غير ان (الله) في الاسلام يختلف عن الله الجاهليين . فالله هو إلـه العالمين ، إلـه جميع البشر على اختلافهم . ليس له شريك من أصنام وأوثان .

أما الله الجاهليين ، فهو رب الأرباب ، وإلـه الآلهة ، يسمو فوق آلهة القبائل أي آلهة القبيلة الواحدة . ولهذا ذكر في شعر شعراء مختلف القبائل ، لأنه لا يختص بقبيلة واحدة .

ويقال لما يعبد من دون الله : الأنداد . وفي كتاب النبي لأكيدر : وخلـع الأنداد والأصنام . والند : مثل الشيء والنظير . وفي التنزيل : واتخذوا من دون الله أنداداً ، أي ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله[1] .

والله إلـه ذكر . وكيـــف لا يتصور الإنسان إلهه ذكراً ، والذكر هو قوي مقتدر بخلاف الأنثى ! وحيث أن الله هو قوي ومصدر القوة والخلق ، فلا بـد وأن يكون ذكراً في عقلية تلك الأيام ، ولا بد من التعبير عنه بصيغ التـذكير . كما يلاحظ أن الجاهليين قد تصوروه واحداً ، فلم يخاطبوه بصيغة الجمع ، ممـا يفهم منه التعدد .

ولم يتطرق الشعر الجاهلي الى موضوع وجود إلهة أي أنثى تكون زوجـاً له . ولم يشر القرآن الكريم الى اعتقاد الجاهليين بوجود زوجة له . فهو في نظرهم إذن إلـه واحد متفرد لا يشاركه مشارك في حياته . وإذ كان الله واحداً أحداً أعزبَ ، فلا يمكن أن يكون له ولد . ولكن القرآن الكريم يشير الى اعتقاد الجاهليين بوجود

---

١ اللسان (٣/٤٢٠) ، (ندد) .

بنين وبنات لله . ففي سورة الانعام : « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون »[1] . وقد ذهب المفسرون الى أن العرب قالت الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى عزير والمسيح ابنا الله ، وأن النصارى قالت المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله[2] . وفي سورة النحل « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[3] ، وفي سورة الصافات « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون »[4] ، « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون »[5] . وفي سورة الزخرف «أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين»[6] وفي سورة الطور « أم له البنات ولكم البنون »[7] . وأجمعوا على أن قريشاً وأضرابهم كانوا يزعمون أن الله اصطفى الملائكة بناتاً له . ولم يذكروا كيف صاروا له بناتاً . وقد ورد في بعض الروايات أن كفار قريش قالوا : « الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر من أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن »[8] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ، ان (أعداء الله) زعموا : ان الله وابليس اخوان[9] . ولم يذكروا من هم (أعداء الله) أهم من العرب أم من غيرهم !

ويظهر ان الذين آمنوا بوجود إلـه ، تصوروا مكانه فوق الانسان ، أي فوق الأرض ، في السماء . لذلك كانوا اذا توجهوا اليه بالدعاء رفعوا أيديهم الى السماء . والسماء ، المكان المرتفع اللائق بأن يكون مقر الرب أو الأرباب . وهو اعتقاد نجده عند غير الجاهليين أيضاً . ومن هذه النظرة ظهر (بعل سمين) (بعل سمن) ، أي (رب السماء) و (إلـه السماء) المذكور في بعض نصوص المسند . وهو إلـه قبيلة (امر) (أمر) من القبائل العربية الجنوبية . الإلـه المرسل للسحاب

---

١ الانعام ، الرقم ٦ ، الآية ١٠٠ .
٢ تفسير الطبري (١٩٧/٧ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٠٩/٧) .
٣ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ٥٧ .
٤ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٤٩ .
٥ الصافات ، الرقم ٣٧ ، الآية ١٥١ وما بعدها .
٦ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الآية ١٦ .
٧ الطور ، الرقم ٥٢ ، الآية ٣٩ .
٨ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .
٩ تفسير الطبري (٦٩/٢٣) .

ومنزل الغيث وباعث الحركة والخصب والخير للناس[1] . وقد تعبد له الصفويون كذلك ، وذكر في نصوصهم . وعرف عندهم بـ (هـ — بعل سمن)[2] .

ولهذه النظرة اتخذ زهادهم لهم معابد خلوية على قمم الجبال وعلى الهضاب والمرتفعات وابتنوا الصروح للتعبد فيها ومناجاة الرب ، واتخذوا من الكهوف المنقورة في الجبال مآوي يتعبدون فيها ويعتكفون الأيام والشهور والسنين . وكانوا اذا أمسكت السماء قطرها ، وأرادوا الاستمطار ، أصعدوا البقر في جبل وعر ، وقد أضرموا النار في السلع والعشر المعقودين في أذنابها ، وهم يتبعون آثارها ، يدعون الله ويستسقونه[3] . ولولا اعتقادهم ان الجبل أقرب الى الله من الأرض ، لما أتعبوا أنفسهم ، فصعدوا الجبل المرتفع مع بقرهم، فكان استسقاءهم من الأرض.

الجبر والاختيار :

هذا وأود ان ابين ان اكثر الذين كانوا يدينون بالتوحيد ، ويعتقدون بوجود إلـه واحد خلاّق لهذا الكون ، كانوا يؤمنون بما نسميه : « القضاء والقدر » او (الجبر) بتعبير أصح . فالخير والشر من الله ، وكل شيء في هذا الكون محتوم مكتوب . وما يصيب الانسان ، لا بد ان يكون قد كتب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب ، بل نجد هذه النظرة حتى عند من لم يأت اسم الله في شعره ، فلا ندري أكان من المؤمنين بالله ام لا . وفكرة ان كل شيء في هذا الكون مقدر محتوم ، فكرة قديمة غلبت على عقلية الشرقيين ، بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة اذ ذاك ، أوضاع جعلت الغالبية من الناس تشعر انها مسخرة ، وانها تدفع في حياتها دفعاً وفي سبيل خدمة النخبة المتحكمة ، المسيرة للأمور ، أضف الى ذلك تأثير عامل الجو في الانسان .

وقضية الجبر والاختيار ، قضية لا نجدها عند المؤمنين بوجود إلـه هو (الله)، أو آلهة أخرى من الجاهليين فقط ، بل نجدها عند غيرهم أيضاً ممن لم يكن يقر بعبادة (الله) ، وينكر وجود خالق ، نجدها عند ممن كان يتعبد للأصنام ،

---

١ Rep. Epigr. 4142, Grohmann, S. 245.

٢ F. V. Winnett, Safaitic Inscriptions from Jordan, p. 18, 23.

٣ ابن فارس ، رسالة النيروز (ص ١٨ وما بعدها) .

أو للقوى الخفيّة ، أو لا يدري أي شيء عن الآلهة والخلق ، أو من الدهرية ، القائلين بالدهر . فهؤلاء أيضاً كانوا يعتقدون أن الإنسان ، مسير ولا اختيار له في هذه الدنيا ، فكل شيء مكتوب عليه . كتب عليه منذ ولد . والسبب ، هو ما قلته: وجود عوامل عديدة سيرت الانسان واستعبدته من أوضاع سياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية ومناخية تحكمت فيه ، حتى رسخ في عقل الجاهلي ، أن كل شيء في هذه الدنيا مقدر مكتوب ، وأن ما كتب على الجبين ، لا يمكن تغييره ولا تبديل له،ولا اعتراض على ما هو مكتوب ، ولا راد لأمر كتب في السماء .

الموت :

وفي مطلع قائمة الموضوعات التي أثارت البشرية ولا تزال تثيرها قضية الموت الذي هو ضد الحياة والعالم الثاني الذي يصير اليه الانسان بعد الموت[1] . إن الموت أمر مخيف راعب يثير مشاعر كل انسان . فما الذي سيكون مصيره بعد الحياة ، وإلى أي مكان سيتجه بعد هذه الحياة ، وهل الموت انطفاء لشعلة الحياة وانحلال للجسد الى الأبد ؟ أو هو مرحلة من حياة الى حياة أخرى يحيا فيها الانسان حياة جديدة ، ويبعث بعثاً جديداً يبعثه من خلقه ؟ ثم ما الذي سيكون عليه في العالم الثاني ؟ هل يعيش عيشة راضية مطمئنة ، عيشة تفوق معيشته في عالمه الأول ؟ أم سيعيش عيشة أخرى ؟ إما راضية ناعمة ، وإما شقيّة تعسة بحسب عمل الإنسان وما قدمه لنفسه من عمل في العالم الأول ؟ هذه الأسئلة وعشرات من أمثالها شغلت بال الانسان البدائي والراقي ولا تزال تشغله . كل وجد لها أجوبة ، وكل قنع بما أجاب به عنها ، ورضي بها . وكانت للجاهليين على اختلافهم آراء في هذه المشكلات لا شك في ذلك .

والموت في كلام العرب : السكون . يقال مات بمعنى سكن[2] . وهذا هو المعنى المفهوم للموت عند الجاهليين . فالمراد من الموت هو سكون الجسد بعد مفارقة الروح له . وقد حار الجاهليون ، كما حار غيرهم في تفسير ظاهرة الموت،

---

١ المخصص (٢/٦٤) .

٢ تاج العروس (١/٥٨٦) ، (موت) .

وكيفية وقوع الموت وحدوثه . وقد اعتبره بعضهم حدثاً طبيعياً ، يحدث للانسان كما يحدث لأي شيء آخر في هذا الكون من التعرض للهـلاك والدمار . واعتبره بعض آخر ، مفارقة الروح للجسد . وهم الذين اعتقدوا بالثنائية وبالازدواجية في حياة الانسان ، أي بوجود جسد وروح . واعتبره آخرون موت للنفس ، وبوفاة النفس يتوفى الجسد ويصيبه السكون . فالموت عندهم مفارقة الروح للجسد ، فإذا مات الانسان خرجت روحه من أنفه ، او من فمه ، فينفض الانسان نَفَسَه . واذا مات ميتة طبيعية ، يقال عن الميت : مات حتف أنفه ، ومات حتف فيه ، أي ان روحه خرجت من أنفه او من فمه ، وهو قليـل ، لأن النفس في نظر اهل الجاهلية تخرج بتنفسه ، كما يتنفس من أنفه . ويقـال أيضاً حتف أنفيه . وكانوا يعتقدون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، وأما القتيـل ، والجريح ، فتخرج روحه من موضع جرحه[1] .

ويقال : (زهقت نفس فلان) ، اي خرجت روحه . فهم يتصورون اذن ان روح الانسان كائن مستقل اذا فارق الجسد مات . (وفي الحديث : إن النحر في الحلق واللّبة ، وأقروا الأنفس حتى تزهق ، اي حتى تخرج الروح من الذبيحة ولا يبقى فيها حركة)[2] .

و (الرمق) بقية الحياة ، او بقية الروح ، وآخر النفس[3] . فكأنهم تصوروا ان الشخص المريض او الجريح ، قد ودع معظم نفسه ، ولم تبق من روحه إلا بقية لا تزال في جسده ، هي الرمق .

البعث :

لم يكن كثير من الجاهليين يؤمنون بالبعث كما يتبين ذلك من القرآن الكريم . لقد كانوا يرون أن الموت نهاية ، وانهم غير مبعوثين ، وأن البعث بعـد الموت شيء غير معقول ، لذا تعجبوا من قول النبي بوجود البعث والحساب . « وقالوا

---

١ تاج العروس (٦/٦٤ وما بعدها) ، (حتف) .
٢ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زهق) .
٣ اللسان (١٠/١٢٥) ، (رمق) .

إن هي إلا حياتنا الدنيـــا وما نحن بمبعوثين »[1] ، « وأقسموا بالله جهـد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2] ، « وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً إنّا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل :الذي فطركم أول مرة ، فسينفضون اليك رؤوسهم ، ويقولون : مـتى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً »[3] . و « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربـي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير »[4] ، و « إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب »[5] ، و « لئن قلت إنكم مبعوثون بعـد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هـــذا الا سحر مبين »[6] ، و « بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون »[7] ، و « ان تعجب فعجب قولهم : أإذا كنّا تراباً أإنا لفي خلق جديد »[8] ، و (أيعدكم أنكم اذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعـدون . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[9] . و « قـال الذين كفروا أإذا كنّا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا ، نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون »[10] ، و « وقالوا : أإذا ضللنا في الأرض أإنّا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم

---

١ الانعام ، الآية ٢٩ .
٢ النحل ، الآية ٣٨ ، تفسير الطبري (١٠٤/٨ وما بعدها) .
٣ الاسراء ، الآية ٤٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٠٤/١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١٢٨/١٤) .
٤ التغابن ، رقم ٦٤ ، الآية ٧ .
٥ الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٥ .
٦ هود ، رقم ١١ ، الآية ٧ .
٧ المؤمنون ، الآية ٨٢ ، الصافات ، الآية ١٦ .
٨ الرعد ، الآية ٥ .
٩ المؤمنون ، الآية ٣٥ وما بعدها .
١٠ سورة النمل ، رقم السورة ٢٧ ، الآية ٦٧ وما بعدها .

ملك الموت الذي وكل بكم ، ثمّ الى ربكم ترجعون »[1] . و« إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين »[2] .

والآيات المتقدمة وأمثالها[3] كلها حكاية عن رأي كثير من الجاهليين في نفي البعث وفي عدم امكان العودة الى حياة أخرى بعد موت يهلك الجسم ويفني العظام فيجعلها رميماً ويمحو كل أثر للجسم ، لذا كان البعث من أهم ما عارض فيه الجاهليون معارضة قاسية شديدة ، وكان من الموضوعات التي تندروا بها وسخروا وآخذوا عليها الرسول[4] . وكانوا يقولون : « إن هي إلا موتتنا الأولى التي نموتها. وهي الموتة الأولى ، وما نحن بمنشرين بعد مماتنا ولا بمبعوثين تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب » . وقالوا للرسول : « فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا ان كنتم صادقين ان الله باعثنا من بعد بلانا في قبورنا،ومحيينا من بعد مماتنا »[5] . وقالوا : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون؟ يقولون منكرين بعث الله اياهم بعد بلائهم . أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً قد ذهب عنها اللحوم . أو آباؤنا الأولون الذين مضوا من قبلنا فبادوا وهلكوا ؟ »[6] .

وكان من محاججة قريش للرسول ومحاولتهم إفحامه وتعجيزه قولهم له يوم اجتمعوا به : « يا محمد ؟ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت انه ليس من الناس احد أضيق بلداً ولا اقل ماءً ولا أشد عيشاً منا . فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحق هو ام باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وانه بعثك رسولاً كما

---

١ السجدة ، رقم السورة ٣٢ ، الآية ١٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٩٦/٢١) ، روح المعاني (١١٢/٢١ وما بعدها) .

٢ الدخان ، رقم السورة ٤٤ ، الآية ٣٤ وما بعدها ، تفسير الطبري (٧٦/٢٥ وما بعدها) .

٣ هود ، ٧ ، المؤمنون ٨٢ وما بعدها ،سبأ ، ٣ وما بعدها ، الجاثية ، ٢٤ وما بعدها .

٤ الكشاف (٤٤٨/١) ، (٧٤/٢ ، ١٨٩ ، ١٩٥ وما بعدها) ، الطبرسي (٣٩/٧) ، (٧٥/١٤) ، (٥٨/١٥) ،

٥ تفسير الطبري (٧٦/٢٥) ، (٧٨/١ وما بعدها) .

٦ تفسير الطبري (٣٠/٢٣) .

تقول ! »[1] . وسألوه أسئلة اخرى من هذا القبيل ، لتعجيزه في اثبات البعث . « جاء عبدالله بن أبيّ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال : يا محمد ، كيف يبعث الله هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم »[2] . وأتى (أبيّ بن خلف) رسول الله (بعظم حائل ففته ثم ذراه في الريـــح . ثم قال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ؟ قال الله يحييه ثم يميته ، ثم يدخلك النار »[3] . و « جاء العاص ابن وائل السهمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعظم حائل ففته بين يديه . فقال يا محمد أيبعث الله هذا حياً بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم »[4] .

وممن أنكر البعث على ما ذكره الأخباريون قوم من قريش كانوا زنادقة أنكروا الآخرة والربوبية ، أخذوا زندقتهم هذه من الحيرة[5] . وإذا كان من هؤلاء من كان يقدم القرابين والهدايا لأصنامه ، فإن ذلك لا يعني أنه كان يفعل ذلك لترضى عنه في العالم التالي ، بل كان يفعل ذلك لترضى عنه في هذه الحياة الدنيا ، لتمن عليه بالنعم والخيرات . أمـــا العالم الثاني ، فهو عالم لا يهتم به ، لأنه لم يكن يتصور وجوده ولا حدوثه بعد الموت[6] .

ويتجلى هذا الانكار للحشر والبعث في أبيات تنسب الى (شدّاد بـن الأسود ابن عبد شمس بن مالك) يرثي بها قتلى قريش يوم بدرٍ ، وهم الذين قتلوا في تلك المعركة وألقوا في القليب :

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
أيعجز أن يرد الموت عـــني وينشرني إذا بليت عظـــامي

أراد الشاعر إنكار البعث،وأن يصير الإنسان مرة أخرى انساناً بعد أن تتحول

---

١ ابن هشام (١/١٨٦) ، (حاشية على الروض) .
٢ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، روح المعاني (٥٠/٢٣) .
٣ تفسير الطبري (٢١/٢٣) ، الاشتقاق (٨٠) .
٤ تفسير الطبري (٢١/٢٣) .
٥ المحبر (ص ١٦١) ، بلوغ الارب (١/٣٤٥) ، المعارف (٦٢١) .
٦ Reste, S. 185.

روح الانسان الى طير[1] .

وذكر ان (الحارث بن عبد العزى) ابو رسول الله من الرضاعة ، لما قدم مكة ، قـالت له قريش : « ألا تسمع يا حار ما يقول ابنك هذا ؟ فقال : وما يقول : قـالوا : يزعم ان الله يبعث بعد الموت ، وان لله دارين يعذب فيها من عصاه ، ويكرم فيها من أطاعه . فقد شتت أمرنا وفرّق جماعتنا »[2] . فهم ينكرون البعث والحساب ، ولا يريدون سمـاع شيء عنها ، ولا يصدقون عودة الروح الى الجسد بعد أن فارقته ، فذلك عندهم من المستحيلات ، ولذلك سخروا من البعث لما سمعوا به . وكيف يكون بعثاً وقد فنيت الأجساد ، فلم تبق منها بقية !

فرأي من أنكر الحشر والبعث من أهل الجاهلية ، ان الحياة حيـاة واحدة ، هي حياتنا التي نحن فيها في دار الدنيا ، ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ، نحيا ونموت ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر[3] . فالحياة اذن حياة وموت في هـذه الدنيا ، وهي استمرار للاثنين على مدى الدهر ، يولد انسان ثم يموت ليحل محله انسان آخر ، وهكذا بلا انتهاء .

ونجد رأي الناكرين للبعث في قوله تعالى : « وقالوا : ما هي إلا حياتنـا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر »[4] . فهم يقولون : ما هـي الا حياتنا الدنيا ، نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ، فجعلوا حياة ابنائهم بعدهم حياة لهم ، لأنهم منهم وبعضهم ، فكأنهم بحياتهم أحياء . والدهر الزمان ، وهو الذي يهلك ويفني[5] . فالحياة بهذا المعنى ، فعل مستمر ، وتطور لا ينتهي ، يهلك جيل،

---

١ وهي من أبيات رويت بصور مختلفة ، وفي بعضها زيادات ، راجـع ابن هشام (١/١١٣) ، هامش على الروض الانف ، كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصـير (ص ٣٠٨) ، « طبعة أوروبة ١٩٢٧ » ، بلوغ الارب (٢/١٩٨) ،

يحدثنـا الرسول بـأن سنحيا وكيف حيـاة أصـداء وهـام ؟

بلوغ الارب (٢/١٩٢) .

٢ الروض الآنف (١/١٠٧) .

٣ تفسير الطبرسي (٢٥/١٣٦) ، (بيروت) ، (٢٥/٧٨) ، (طهران) .

٤ الجاثية ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبري (٢٥/٩١) ، روح المعاني (٢٥/١٣٩) .

٥ تفسير الطبري (٢٥/٩١ وما بعدها) ، (بولاق) ، (٢٥/١٥١ وما بعدها) ، (القاهرة ١٩٥٤) .

ليأخذ محله الجيل الذي نبت منه . وكلّ يأخذ دوره في هذه الحياة ، فإذا انتهى دور انسان ، قام بدوره نسله ، وهكذا ، وبهذا المعنى تفسر الحياة ، ويفسر الموت .

وقد يسأل سائل اذا كان أغلب أهل الجاهلية لا يؤمنون بثواب ولا بحساب وبعث ونشر ، فلمَ تعبّدوا اذن لإلـه ، وتقرّبوا الى الأصنام ، وقدّموا القرابين والنذور ؟ وجوابي على هذا السؤال ، هو ما ذكره المتقدمون عنه . قالوا : « كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدوّ ، ولا يطلبون الآخرة ، اذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها »[1] . فعبادتهم الله وتقربهم الى الآلهة ، هي لمصلحة دنيوية ، لنفع ولزيادة في مال ، ولدفع شر الأذى والأمراض وعيون الحساد ، ومن كل ما هو شر ، أما الآخرة ، فلا علم لهم بها .

وما خوفهم من الآلهة إلا لاعتقادهم أنها تضرهم وتهلكهم وتنزل بهم الشرّ في هذه الدنيا . فإذا أقسم أحدهم كذباً ، انتقمت الآلهة منه وأنزلت به نازلة ، لذلك تجنبوا الايمان الكاذبة ، وامتنعوا من الحلف جهد إمكانهم ، لخوفهم من عاقبة الحلف الكذب . والعاقبة السيئة تكون في هذه الدنيا . وهي عواقب مادية ، لأن عقلية اكثر اهل الجاهلية لا تدرك إلا القيم المادية للأشياء . فتصوروا العاقبة السيئة تصوراً مادياً ، كنزول مرض بإنسان أو نزول كارثة بماله او بإبله أو بزرعه او بأهله ، وهي أمور يخشاها الجاهلي ، تكون معجلة في نظره ، اي في هذه الدنيا . لأنهم لا يعرفون ان في الحياة داراً غير هذه الدار ، ولا يؤمنون بحشر وبعث .

جاء في الأخبار ان (ضمام بن ثعلبة) السعدي ، ويقال التميمي ، لما قدم على الرسول ، اقبل حتى وقف على رسول الله ، وهو في اصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : انا ابن عبد المطلب . قال : أمحمد؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسئلة فلا تجدنّ في نفسك . قال : لا اجد في نفسي . سل عمّا بدا لك . قال انشدك بالله إلهك وإلـه من كان قبلك وإلـه من هو كائن بعدك الله امرك ان تعبده وحده

---

١ تفسير القرطبي (٢/٤٣٢) .

لا نشرك به شيئاً ، وان نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم . ثم سأله عن الفرائض ، فأسلم . فلما قدم على قومه ، فاجتمعوا اليه ، (فكان أول ما تكلم به ، ان قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجـــذام ، اتق الجنون . قال : ويلكم انهما والله ما يضران وما ينفعان)[1] . فالعقاب عقاب مادي في هذه الدنيا ، ترسله الآلهة على الانسان .

غير ان فريقاً من الجاهليين كما يقول أهل الأخبار كان يؤمن بالبعث وبالحشر بالأجساد بعد الموت ، ويستشهدون عـــلى ذلك بـ (العقيرة) وتسمى (البلية) أيضاً . والبلية الناقة التي كانت تعقل عند قبر صاحبها اذا مات حتى تموت جوعاً وعطشاً . ويقولون انه يحشر راكباً عليها ، ومن لم يفعل معه هذا حشر راجلاً . وهذا مذهب من كان يقول منهم بالبعث ، وهم الأقل . ومنهم زهير فإنه قال :

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم[2]

ويذكر أيضاً انهم كانوا يعكسون رأس الناقة أو الجمل أي يشدونه الى خلف بعد عقر احدى القوائم او كلها لكيـــلا تهرب ، ثم يترك الحيوان لا يعلف ولا يسقى حتى يموت عطشاً وجوعاً ،ذلك لأنهم كانوا يرون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاةً اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم[3] ،وفي هذا المعنى قال الشاعر في البلية :

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود

والولايا هي البراذع ، وكانوا يثقبون البرذعة فيجعلونها في عنق البليـــة وهي معقولة . وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذه الوصية :

يا سعدُ امـــا أهلكنّ فإنني أوصيك إنّ أخا الوصاة الأقرب

---

١ الاستيعاب (٢٠٧/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ الروض الانف (٩٦/١) ، الشعر والشعراء (٧٦/١) ، (بيروت ١٩٦٤ م) .
٣ تاج العروس (٤٣/١٠) ، اللسان (٩٢/١٨) ، النهاية (١١٥/١) ، رسالة الغفران (٣٣٣ وما بعدها) ، (بنت الشاطىء) .

لا تتركـــن أباك يمشي خلفهم تعباً يخرّ عـــلى اليدين وينكب
احمل أباك عـــلى بعـــير صالح وابق الخطيئة إنـــه هو أصوب
ولعلّ مالي ما تركت مطيّـــة في اليم أركبها إذا قيل اركبوا[1]

وذكر أنهم كانوا يحفرون للبايـــة حفرة وتشد رأسها الى خلفها وتبلى ، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموف جوعاً وعطشاً . وكانت النساء ، يقمن حول راحلة الميت فينحن إذا مات أو قتل ، وقد عرفن بـ (مُبَكّيات)[2] .

وفي رواية أن بعض المشركين كان يضرب راحلة الميت بالنار وهي حيّة حتى تموت[3] ، يعتقدون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليستفيد منها الميت بعد الحشر[4] .

وإذا كانت عقيدة الجاهليين في عقر الحيوانات المسكينة وإهلاكها قـــد ماتت وزالت ، بسبب تحريم الإسلام لها ، فإن فكرة حشر الناس ركباناً لا تزال باقية حية عند بعض الناس . فالذين يقدمون (العقيقة) في الحياة أو يقدمونها حـــين الوفاة ومع نقل الجنازة أو على القبر ، يختارون أحسن الحيوانات وأقواها لتتمكن من حملهم يوم المحشر ، وتنهض بهم ، فيسير راكباً ، ولا يحشر وهـو مترجل يسير في تلك الساعات الرهيبة ماشياً على قدميه .

ويقال للموت وللحساب (اللِزام)[5] .

ولا أعتقد أن نحر الإبل على القبر وتبايله بدم الإبل المذبوحة[6] ، مجرد عـادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت له ، او تمثيل كرم الراحل حتى بعـد وفاته ، بل لا بد أن يكون هذا النحر من الشعائر الدينية والعقائد الجاهلية التي لها علاقة بالموت وباعتقادهم أن موت الانسان لا يمثل فناءً تاماً وإنما هو انتقـال من حال الى حال .

---

١ الشعر لـ (جريبة بن الاشم الفقعسي) ، يوصي ابنه به وقد ورد بصور أخرى ، راجع الروض الآنف (١/٩٦) ، النهاية ، لابن الاثير (١/١١٥) ، اللســـان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، تاج العروس (١٠/٤٣) ، طبقات الامم (٤٩) .
٢ اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) .
٣ المخصص (٦/١٢٢) ، اللسان (١٦/١٥) ، الاغاني (٦/١٢٢) .
٤ الاغاني (١٦/٤٨) ، « أخبار زيد الخيل » ، (١٧/١٧٦) ، (بيروت ١٩٥٥) ، Reste, S. 180.
٥ تاج العروس (٩/٥٩) ، (لزم) ، المخصص (٦/١٢٢) .
٦ الاغاني (١٩/٨٨) .

وذكر (السكّري) ، أن أكثر العرب كانوا يؤمنون بالبعث . واستشهد على ذلك بشعر للأعشى ، ذكر فيه الحساب . كما ذكر أنهم كانوا يؤمنون بالحساب، واستشهد على رأيه هذا بشعر للأخنس بن شهاب التميمي[1] . وقول (السكري) هذا مردود، بما ورد في القرآن الكريم من إنكار أغلبهم للحساب والبعث والكتاب، وأما الذين قالوا بالبعث ، فهم طائفة لا تصل الى مستوى الكثرة أو الكلّ حتى نستعمل صيغة التعميم .

وإذا كان ما تصوره أهل الجاهلية عن البعث والحشر صحيحاً على نحو ما ذكره أهل الأخبار ، فلا يستبعد أن يكون القائلون بـه أو بعضهم قد تصوروا الحساب على نحو ما يحاسب الانسان على عمله في دنياه . ويلاحظ أن القيامة والبعث والحشر والجنة والنار هي من الكلمات العربية التي لا يستبعد أن يكون لها مفهوم قريب من مفهومها الإسلامي عند الجاهليين .

أما كيف تصور أولئك الجاهليون حدوث البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب وعقاب وحساب وجنّة ونار،أو هو بعث وحشر لا غير ، فأهل الأخبار لم يأتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك. ولهذا فليس في استطاعتنا إعطاء صورة واضحة عن الحشر وعمّا يحدث بعده من تطورات وأمور .

ولم تتحدث الكتابات الجاهلية عما سيحدث للانسان بعد موته . وكل ما ورد فيها هو توسل الى الآلهة بأن تنزل غضبها على كل من يحاول تغيير قبر ، أو ازالة معالمه ، أو دفن ميت غريب فيه ، وان تنزل به الأمراض والآفات والهلاك. ولم تذكر تلك النصوص السبب الذي حمل أهل القبور على التشدد في المحافظة على القبر وعلى ضرورة بقائه ودوامه . فلا ندري اذا كان ذلك عن تفكير بوجود بعث ، وبتصور قيام الميت من قبره مرة أخرى ، ورجوعه ثانية الى الحياة ، او الى عالم ثان ، هو عالم ما بعد الموت ، ولهذا حرصوا حرصاً شديداً على عدم السماح بدفن أحد في قبر ، إلا اذا كان من أهل صاحب القبر ومن ذوي رحمه، حتى لا يتأذى الميت من وجود الغرباء ، وليستأنس بأهله وبذوي قرابته مرة أخرى بعد عودة الحياة اليه ، فيرى نفسه محشوراً معهم ، ومع من أحبه في حياته، عائشاً

---

١ المحبر (٣٢٢) .

معهم ، كما كان قد عاش معهم ، أو ان حرصهم على حرمة القبر ، انما كان عن مراعاتهم لحرمة القبر ، وعلى منزلة الموتى ، فالمسّ بحرمة القبر ، مسّ بحرمة الميت ، وانتهاك لمقامه ولمكانته ، ولما كان عليه في هذه الحياة !

وهناك من كان يعتقد ان الميت وان غيب في قبره وانقطعت علاقته بآله وذويه ، الا ان روحه لن تموت ، وانه يظل وهو في قبره يقظاً ، متتبعاً لأخبار أهله . تخبره بها هامته التي تكون عند ولد الميت في محلته بفنائهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبّرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها [1]

وأما ما ورد في الشعر الجاهلي من أمر الحشر والنشر والحساب والكتاب والعالم الثاني ، فهو مما ورد ودوّن في الاسلام ، ولم أجد في رواية من روايات أهل الأخبار ان أحداً من رواة الشعر الجاهلي ، ذكر انه نقل ما نقل من هذا الشعر من ديوان جاهلي ، أو من كتاب كتب قبل الاسلام . ومع ذلك ، فإن هذا المروي عن العالم الثاني قليل ، لذلك لا نتمكن لقلته من تكوين صورة واضحة عن ذلك العالم ومن التحدث بطلاقة عن رأي أصحاب هذا الشعر في الحشر والنشر والبعث .

وأما ما ورد في شعر (أميّة بن أبي الصلت) عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار ، فهو أوسع ما ورد في الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . وأمية ، هو الشاعر الجاهلي الوحيد الذي جاء أكثر شعره في نزعات دينية وفكرية ، ذلك لأنه كان في شك من عبادة قومه ، وكان على شاكلة غيره ممن سئم تلك العبادة ، ينهى قومه عنها ، ويسفه أحلامها ، وقد تأثر باليهودية وبالنصرانية . وفي شعره اعتقاد بالجنة والنار والبعث . وبصحة المعاد الجسماني ، وبوجود الجنة والنار بالمعنى الحقيقي ، لا المجازي ، وهو يتفق في ذلك مع الإسلام . كما تحدثت عن ذلك في الفصل الخاص بالأحناف .

وكان (الأعشى) ممن يؤمن بالله وبالحساب ، وقد استشهد من قال ذلك عنه

---

١ مروج (٢/١٣٣) .

بأبيات شعر تشعر أنه كان يؤمن بالحساب وبقيام الانسان بعد الموت لمحاسبته على عمله . من ذلك قوله :

يراوح مـــن صلوات المليك طوراً سُجوداً وطوراً جُؤارا
بأعظم منك تُقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبـــارا[1]

وكان (زهير بن أبـي سلمى) على مذهب من كان منهم يقول بالبعث ، وهم الأقل[2] قال :

يؤخر فيوضع في كتابٍ فيدخر ليـوم الحساب أن يعجل فينقم[3]

وكان (حاتم) طيء من المتألهين ، ومن المعتقدين بالحساب . وقد أورد أهل الأخبار له شعراً في ذلك[4] .

البلية والحشر :

ولم يذكر أهل الأخبار كيف تصور القائلون بالقيامة وبالحشر من أهل الجاهلية قيام الموتى ومشيهم الى المحشر . فقد ذكروا ان قومـــاً من الجاهليين كانوا اذا مات أحدهم عقلوا ناقة على قبره وتركوها حتى تبلى ، وتسمى لذلك (البلية) . وقالوا : « البلية كغنيّة الناقة التي يموت ربها ، فتشد عند قبره ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً أو يحفر لها وتترك فيهـــا الى ان تموت ، لأنهم كانوا يقولون صاحبها يحشر عليها ، و (كانوا يزعمون ان الناس يحشرون ركباناً على البلايا ومشاة اذا لم تعكس مطاياهم عند قبورهم) . وذكـر انهم (كانوا في الجاهلية يعقرون عند القبر بقرة أو ناقة أو شاة ، ويسمون العقيرة البلية) ، (وفي فعلهم هذا دليل على انهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد. وهم الأقل . ومنهم زهير)[5] . وفي هذا المعنى يقول جريبة بن أشيم[6] :

---

١ رسالة الغفران (١٨٠) .
٢ الروض الانف (١/٩٦) .
٣ الروض الانف (١/٩٦) .
٤ رسالة الغفران (٤٨٨) .
٥ تاج العروس (١٠/٤٣ وما بعدها) ، (بلى) ، القاموس (٤/٣٥٠ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٢/٦٢٥) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ، (جريبة بن الاشيم الفقعسي) ، بلوغ الارب (٢/٣٠٧) .

يا سعدُ إمـــا اهلكنّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ
لا أعرفن أباك يحشر خلفـــكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب
واحمـــل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولتقلّ لي مما جمعت مطيّة في الحشر أركبها اذا قيل: اركبوا[1]

ومن ذلك قول عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته في البلية :

أبنيّ زوّدني اذا فارقتـــني في القبر راحلةً برحـــل فاتر
للبعث أركبها اذا قيل : اظعنوا مستوثقين معـــاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه عـــلى عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثر[2]

وقال عويمر النبهاني :

أبنيّ لا تنسَ البليّة إنهـــا لأبيك يوم نشوره مركوب[3]

وأوصى رجل ابنه عند الموت بهذا :

لا تتركـنّ أباك يحشر مرة عدواً يخر على اليدين وينكب[4]

وطريقتهم في ذلك أن أحدهم اذا مات ، بلوا ناقته ، فعكسوا عنقها الى مؤخرتها مما يلي ظهرها ، أو مما يلي كلكلها أو بطنها ، ويأخذون وليّة فيشدون وسطها ، ويقلدونها عنق الناقة ، ويتركون الناقة في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها ، وربما سلخت وملىء جلدها تماماً[5] .

قال شاعر في البليّة :

والبلايا رؤوسها في الولايا ما نجات السموم حر الخدود

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ، تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) ،بلوغ الارب (٢/٣٠٧ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٢/٣٠٩) .
٤ الروض الآنف (١/٩٦) .
٥ بلوغ الارب (٢/٣٠٧) ، اللسان (١٤/٨٥ وما بعدها) ، (بلا) .

والولايا هي البراذع . وكانوا يثقبون البرذعة ، فيجعلونها في عنق البليّة وهي معقولة حتى تموت[1] .

أما كلمة (جهنم) ، فيرى العلماء أنها من الكلمات المعربة . ويظن المستشرقون أنهـا من أصل عبراني[2] . ومن أسماء جهنم على رأي علماء اللغة (الهاوية)[3] . و (أم الهاوية)[4] .

---

١ الروض الأنف (١/٩٦) .
٢ المعرب ، للجواليقي (ص ١٠٧) « طبعة دار الكتب المصرية » ، Ency., I, p. 998.
٣ اللسان (٢٠/٢٥٠) .
٤ المخصص (١١/٣٨) .

obeikandl.com

الفصل الخامس والستون

الروح والنفس والقول بالدهر

ويحملنا قول بعض الجاهليين بوجود البعث ، وبالصدى والهامة ، على التحرش بموضوع الروح وماهيتها عند أهل الجاهلية ، وعن كيفية تصورهم لها . وقد سأل أهل مكة الرسول عن ماهية الروح ،فنزلت الآية : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروحُ من أمر ربي،وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً »[1]. ويذكر المفسرون أن اليهود حرضوهم على توجيه هذا السؤال الى الرسول ، امتحاناً واحراجاً له[2]. وفي سؤالهم له عن الروح معنى اهتمام القوم بالموضوع ، ومحاولة إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد . وورد أن يهود يثرب هم الذين سألوه عن أمر الروح ما هي؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ فنزل الوحي عليه بالآية المذكورة[3] .

و (الروح) في تعريف علماء اللغة ما به حياة الأنفس ، والذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة . وذهب بعضهم الى ان الروح والنفس واحد ، غير ان

---

١ الاسراء ، الآية ٨٥ .

٢ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٥) .

٣ تفسير الطبري (١٥/١٠٤ وما بعدها) ، القرطبي ، الجامع (١٠/٣٢٣ وما بعدها) ، تفسير الطبرسي (١٥/٩٣) ، (بيروت ١٩٥٦) ، تفسير ابن كثير (٣/٦١) ، تفسير البيضاوي (١٥/٣٨٢) ، تفسير أبو السعود (٢/٢٣٠) ، تفسير السيوطي (٤/١٩٩ وما بعدها) ، تفسير الكشاف (٢/١٩٧) ، ارشاد الساري (٧/٢١٢) .

الروح مذكر والنفس مؤنثة[1] . وقال بعض آخر الروح هو الذي بـه الحياة ، والنفس هي التي بها العقل ، فإذا نام النائم قبضت نفسه ، ولم يقبض روحه ، ولا يقبض الروح إلا عند الموت . وذكـر بعض العلماء : لكل انسان نفسان : احداهما نفس التمييز ، وهي التي تفارقه اذا نام ، فلا يعقل بها ، والأخرى نفس الحياة ، واذا زالت زال معها النفَس ، والنائم يتنفس . وقد يراد بالنفس الدم ، وفي الحديث : ما ليس لـه نفس سائلة ، فإنه لا ينجس المـاء اذا مات فيه . فعبر عن الدم بالنفس السائلة ، وكما ورد في قول السموأل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

وانما سمّى الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه[2] .

وقد يعبر بها عن الانسان جميعه ، وعن الجسد[3] . وهناك كلمـة أخرى ترد في معنى (الروح) ، هي (النسيم) . و (النسم) نفس الـروح كالنسمة ، يقال ما بها نسمة ، أي نفس ، وما بها ذو نسم ، اي ذو روح . والنسم نفس الريح اذا كان ضعيفاً كالنسيم[4] . وقد ربطوا بين النسيم والروح ، لمـا كان قد علق في أذهانهم اذ ذاك من ان الروح نوع من انواع النسيم ، وهو النفس الذي يتنفسه الانسان ، ومن ان النفس من النسم كذلك ، وان بـين التنفس والنفس صلة . والتنفس يكون بالنسيم . ولهذا قالوا لمن يموت موتاً طبيعياً : (مات حتف أنفه) ، و (مات حتف فيه) ، والحتف الموت ، لأن نفسه يخرج بتنفسه من أنفه او فيه . ولأنهما نهاية الرمق ، ومنهما يكون التنفس[5] .

ويظهر من دراسة معاني الكلمات المذكورة ، أن لفظـة (نفس) هي بمعنى الإنسان والجسد في الشعر الجاهـلي القديم ، أما (الروح) ، فبمعنى النفس ،

---

١ تاج العروس (٢/١٤٧) ، (روح) .
٢ اللسان (٦/٢٣٣ وما بعدها) ، (نفس) .
٣ اللسان (٦/٢٣٤ وما بعدها) ، (نفس) .
٤ تاج العروس (٩/٧٤ وما بعدها) ، (نسم) ، اللسان (٢/٤٦٢) ، تـاج العروس (٢/١٤٧) .
٥ تاج العروس (٦/حتف) .

أي التنفس واستنشاق الهواء والريح[1] . وتقابل لفظة (نفس) لفظة (نيفش) Nephesh في العبرانية ، وتطلق على نفس كل كائن حي ، من إنسان أو حيوان ، وبهذا المعنى وردت في العهد القديم[2] . وتقابل لفظة Soul في الانكليزية و Seele في الألمانية . وقد استعملت لفظة Psyche اليونانية بمعنى نفس في العهد الجديد[3] . ومن هذه اللفظة اليونانية أخذ العلماء مصطلحهم Psychology Psychologie ، أي علم النفس ، ثم مصطلحات العلوم الأخرى المتعلقة بموضوع النفس . وهي في الوقت الحاضر علوم عديدة .

أما لفظة (الروح) ، فتقابل كلمة (روح) Ruach في العبرانية ، ولفظة Spirit في الانكليزية ، و Geist في الألمانية . وتكون في مقابل النفس في علم النفس[4] ، وتقابل لفظة Pneuma في اليونانية ، ومعناها الهواء والريح والنفس .

ونجد بين المعاني التي ذكرها علماء العربية للألفاظ المذكورة ، وهي : النفس ، والريح ، والهواء ، والنسيم ، وبين المعاني الواردة في اللغات الأعجمية عنها شبهاً كبيراً ، يرجع الى وجهة نظر الإنسان في تفسير مظاهر الحياة ، وشعوره بوجود شيء في نفسه خارج عن حدود المادة ، أي عن الجسم او الجسد ، لا يمكن أن يمسكه ولا أن يلمسه ، فسمّاه (نفساً) تارة وسماه (روحاً) تارة أخرى ، وفرق بين الاثنين تارة ثالثة . وقد تصور أن النفس والروح ، شيئان لها علاقة بالحياة . فنسب الحياة اليهما او الى أحدهما . ونظراً الى أنهما غير محسوسين ، ولا يمكن الامساك بهما أو لمسهما ، تصورهما الانسان تصوراً يختلف باختلاف درجة مداركه ومقدار ثقافته ودرجة ما توصل اليه من علم في ذلك الوقت .

وقد تصور اليونان النفس ، على انها هواء ونسيم ، وتصوروها على هيأة طائر صغير في شكل الانسان ، او على شكل طير ، او فراشة[4] . وهو تصور عرف عند غيرهم ايضاً ، بل يكاد يكون الغالب على الناس . ولا زال الناس يصورون الروح على هيأة طائر ، يسبح في الفضاء ، فإذا مات الانسان صعدت روحه الى خالقها ، او الى السماء . فالأرواح طيور تكون في الانسان ، اذا انفصلت عن

---

١ Shorter Ency., p. 433.
٢ التكوين ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٠ .
٣ انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٢٦ . Hastings, p. 872.
٤ H. Schmidt, Philosophisches Wörterbuch, S. 518.

الجسد مات ، وأخذت هي تطير مرفرفة في الأعالي . وبهذا الرأي أخـذ بعض الجاهليين تفسير النفس . تصوروا (النفس طائراً ينبسط في الجسم ، فإذا مات الانسان او قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً بصدح على قبره) . (وكانوا يزعمون ان هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش،ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وانها – أي النفس – لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون من بعده فتخبره)[1] . وزعموا انه اذا قتل قتيل ، فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة ، وهي الهامة ، والذكر الصدى ، فيصيح على قبره اسقوني اسقوني ، فإن قتل قاتله كفّ عن صياحه . وكان بعضهم يقول ان عظام الموتى تصير هامة وتطير. وذكر ان الصدى حشو الرأس ، ويقال لها الهامة أيضاً ، او الدماغ نفسه[2] .

وكان من زعم بعض الجاهليين ، ان الانسان اذا مات او قتل اجتمع دم الدماغ او أجزاء منه ، فانتصب طيراً هامة،ترجع الى رأس القبر كل مئة سنة[3] . ويرجع هذا الرأي الى عقيدة قديمة تعتبر الدم مقراً للنفس ، بل تجعل الدم في معنى النفس ، والنفس في معنى الدم ، وذلك للصلة الوثيقة الكائنة بين الدم والنفس ، ولأن الانسان اذا قتل سال دمه ، فتخرج روحه بخروج الدم من الجسم ، اي خروج النفس من الدم ، بعد ان كانت كامنة فيه . ويمثل هذا الرأي رأي العبرانيين ايضاً في النفس وفي صلتها بالدم ، ورأي غيرهم من الشعوب[4] .

وكان اعتقادهم أن مقر الدم ومركز تجمعه في الدماغ ، ومن هنا قيل : بنات الهام : مخ الدماغ[5] ، فلا غرابة إذا تصوروا ان الروح تنتصب فيه ، فتكون هامة تخرج من الرأس ، وتطير . ويكون خروجها من الأنف او الفم ، لأن النفس يكون منهما . فتتجمع الأرواح حول القبور ، ويكون في وسعها مراقبة أهل الميت وأصدقائه ونقل أخبارهم اليه . ولهذا السبب ، تصوروا المقابر مجتمع

---

١ بلوغ الارب (٣١١/٢) .
٢ تاج العروس (٢٠٧/١٠) ، (صدى) ، (١١٢/٩) ، اللسان (١٠٨/١٦) ، المعاني الكبير (٩٥١/٢ ، ١٠٠٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (١٩٩/٢ ، ٣١١) ، الروض الآنف (١٠٩/٢) .
٤ Hastings, p. 101.
٥ اللسان (٦٢٥/١٢) ، (هوم) .

الأرواح ، تطير فيهـا مرفرفة حول القبور . والى هـذه العقيدة أشير في شعر أبي دُواد :

سلّط المـوت والمنون عليهم فلهم في صدى المقـابر هام

وكذلك في شعر للشاعر لبيد :

فليس الناس بعـدك في نقيرٍ وليسوا غير أصداء وهـام[1]

ولهذا سمّوا الدماغ (الطائر) لأنهم تصوروه على صورة طير . قال الشاعر :

همُ أنشبوا صم القنا في نحورهم وبيضاً تقيض البيض من حيث طائر

عنى بالطائر الدماغ . وعبر عنه للسبب المذكور بـ (الفرخ)[2]

وورد أن (الصدى) ما يبقى من الميت في قبره ، وهو جثته[3] ، وقيل : حشوة الرأس ، أي دماغ الانسان الهامـة والصدّى . وكانت العرب تقول إن عظام الموتى تصير هامة فتطير . وقال بعض الأخباريين : إن العرب تسمي ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت اذا بلي ، الصدى[4] .

وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بالصدى والهامة . ورد في الحديث : « لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر »[5] .

وذكر بعض العلماء أن المراد من (صفر) في الحديث النبوي المذكور دابة يقال إنها أعدى من الجرب عند العرب ، فأبطل النبيّ أنها تعدي . وقال بعض آخر أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، وهو تأخيرهم المحرم الى صفر في تحريمه وجعل صفر هو الشهر الحرام ، فأبطله الرسول[6] .

---

١ اللسان (١٢/٦٢٤ وما بعدها) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٢ تاج العروس (٢/٢٧٢) ، (فرخ) ، (٣/٣٦٤) ، (طير) .
٣ قال النمر بن تولب ، وهو من المخضرمين :
أعاذل أن يصبـح صداي بقفـرة بعيـدا نآنـي ناصري وقريبـي
البرقوقي (ص ٧٥) .
٤ أضربك حيث تقول الهامة اسقوفي
البرقوقي (ص ٧٦) .
٥ اللسان (١٢/٦٢٤) ، (هوم) ،تاج العروس (٩/١١٢) ، (هيم) .
٦ اللسان (٦/١٣٣) ، (٤/٤٦٣) ، (صفر) ، (صادر) .

وقد لخص (المسعودي) آراء أهل الجاهليـــة في النفس والروح ، فقال : « كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء ينازعون في كيفياتها ، فمنهم من زعم ان النفس هي الدم لا غير ، وان الروح الهـــواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه ، ولذلك سمّوا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم ، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفسٌ سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه ام لا ؟ قال تأبطَ شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله ، كيف كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضباً ، فسالت نفسه سكبـــاً . وقالوا ان الميت لا ينبعث منه الدم ، ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة ، وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة »[1] .

ثم تطـــرق (المسعودي) الى رأي من قال ان النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فإذا مات او قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، يسمونه الهام ، والواحدة هامة[2] .

ونظراً الى قلة ما لدينا من موارد عن الروح والنفس وعلاقتهما بالجسد ، عند الجاهليين ، فإننا لسنا في وضع نستطيع فيه ان نتحدث عـن رأي عموم الجاهليين في تركيب الانسان . هل هو من (جسد) و (روح) ، أو (جسد) و (نفس) أي ثنائـــي التركيب ، او انه من (جسد) و (روح) و (نفس) ، اي ثلاثي التركيب . فقد رأينا انهم يجعلون الـــروح والجسد شيئاً واحداً أحيانـــاً ، ويفرقون بينهما أحياناً اخرى . ولكننا نستطيع ان نقول ان غالبيتهم كانت ترى ان الانسان من جسد ، هو الجسم ، أي مادة ، ومن شيء لطيف ليس بمـــادة هو الروح او النفس ، وهما مصدرا القوى المدركة في الانسان ومصدرا الحياة . وان بانفصالها عن الجسد ، او بانفصال الجسد عنها يقع الموت .

ويظهر من مخاطبات الوثنيين للأصنام ، كأنهم كانوا يتصورون أن لها روحـاً وأنها تسمع وتجيب . ومن الجائز حلول الروح في الجماد . وقـد ورد عن (ابن الكلبيّ) عن (مالك بن حارثة) أن والد مالك هذا كان يعطيه اللبن ، ويكلّفه

---

١ مروج (٢/١٣٢) .
٢ مروج (٢/١٣٣) .

بأن يذهب به الى الصنم ود ليسقيه،فكان مالك يشربه سراً ويبخل به على صنمه[1] . واذا صح خبر ابن الكلبي هذا ، فإنه يدل على (حارثة) ، وربما غيره أيضاً من عبدة الأصنام ، كان يرى ان الصنم يعقل ويدرك ، يسمع ويرى ، وانه وان كان من حجر ، إلا أنه ذو روح . كما ورد أن من المشركين من كان يرى أن الشمس ملك من الملائكة ذات نفس وعقل[2] .

ويتبين من تشديد النبي في تسوية القبور مع الأرض ، ومن لعن المتخذين على القبور المساجد والسُرُج ، ومن النهي عن الصلاة الى القبور ، ومن حديث : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[3] ، ان المشركين كانوا يقدسون قبور اسلافهم ، ويتقربون اليها ، لزعمهم انهم أحياء ، لهم أرواح ، تعي وتسمع وتدرك ، وتفرح وتغضب وتجيب ، وتنفع وتضر ، ولهذا حاربها الرسول ، وأمر بتسوية القبور ، ابعاداً عن أمر الجاهلية في ذلك ، وخشية العودة الى ما كانت عليه : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[4] ، تعبير عن معنى هذه المشاركة وعن رأيهم في عبادة الأصنام .

الرجعة :

واعتقد قوم من العرب في الجاهلية بالرجعة: اي الرجوع الى الدنيا بعد الموت. فيقولون ان الميت يرجع الى الدنيا كرة أخرى ويكون فيها حياً ، كما كان[5] . ولعل هذه العقيدة هي التي حملت بعض الجاهليين على دفن الطعام وما يحتاج الانسان في حياته اليه مع الميت في قبره ، ظناً منهم ، انه سيرجع ثانية الى هذه الدنيا ، فيستفيد منها ، فلا يكون معدماً فقيراً . ويفهم من كتب الحديث ان من الناس

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٢ بلوغ الارب (٢/٢١٥) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢١٤) .
٤ الزمر ، الرقم ٢٩ ، الآية ٣ .
٥ تاج العروس (٥/٣٤٨ وما بعدها) ، (رجع) ، (والرجعة : مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم . ومذهب طائفة من فرق المسلمين من أولي البدع والاهواء ، يقولون ان الميت يرجع الى الدنيا ويكون فيها حيا كما كان) ، اللسان (٨/١١٤) ، (رجع) .

من سأل الرسول عن الرجوع الى هذه الدنيا[1] ، مما يشير الى معرفة القوم عند ظهور الاسلام بهذا الرأي .

و « لمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عمر بن الخطاب ، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي،وان رسول الله ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد ان قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات » . ثم جاء (أبو بكر) « وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ؟ فأنصت ، فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ايها الناس ، انه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل[2] .. الى آخر الآية » . « وقال عمر : والله ما هو إلا ان سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت على الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت ان رسول الله قد مات » .

وقد اعتقد بعض الجاهليين بـ (المسخ) . وهو تحول صورة الى صورة أخرى أقبح ، وتحول انسان الى صورة أخرى أقبح ، او الى حيوان . كأن يصير إنسان قرداً ، او حيواناً آخر[3] ، او الى شيء جماد . من ذلك ما يراه بعض أهل الأخبار عن (اللات) ، من انه كان رجلاً يلت السويق عند صخرة بالطائف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحيّ) ، إنه لم يمت ، ولكنه دخل الصخرة ،ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيتاً عليها يسمى اللات[4] . وما رووه ايضاً عن (أساف) و (نائلة) ، من أنهما كانا رجلاً وامرأة ، عملا عملاً قبيحاً في الكعبة،فمسخا حجرين[5] . وما رووه من أن (سهيلاً) كان عشاراً على طريق اليمن ظلوماً ،

---

١ النهاية (٢/٧٢) ، (رجع) .
٢ سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ (٢٢ الطبري (٣/٢٠٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٢/٢٧٩) ، (مسخ) .
٤ تاج العروس (١/٥٨٠) ، (لت) .
٥ تاج العروس (٦/٤٠ وما بعدها) . (اسف) ، اللسان (١٠/٣٤٨) ، الاصنام (٩ ، ٢٩) ، الروض الآنف (١/٦٤) ، المحبر (٣١٨) .

فمسخه الله كوكباً[1] .

وورد أن بعض الملائكة عصى الله فأهبط الى الأرض في صورة رجل تزوّج أم جرهم فولدت له جرهماً . وأن ما تولد بين الملك والآدمي يقال له (العلبان)[2]. وان (النسناس) جنس من الخلق يثب أحدهم على رجل واحدة ، أصلهم حيّ من عاد عصوا رسولهم فمسخوا نسناساً ، لكل إنسان منهم يـد ورجل من شق واحد ، ينقزون كما ينقز الطائر ويرعون كما ترعى البهائم[3] .

وقد ذكر (الجاحظ) أمثلة من امثلة المسخ التي وقعت للحيوان عـلى اعتقاد الناس ، من ذلك : اعتقادهم ان السمك (الجريّ) والضباب كانتا أمتين من الأمم مسختا . واعتقادهم ان (الإربيانة) كانت خيّاطة تسرق السلوك ، وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها ، ومن ان (الفأرة) كانت طحّانة ، والحية كانت في صورة جَمَل ، وان الله عاقبها حتى لاطها بالأرض ، وقسم عقابهـا على عشرة اقسام ، حين احتملت دخول ابليس في جوفها حتى وسوس الى آدم من فيها . ومن ان الإبـل خلقت من أعناق الشياطين ، وان الكلاب امة من الجن مسخت ، وان الوزغة والحكأة من ممسوخ الحيوان[4] .

ومن أمثلة المسخ : جرهم،فقد زعم ان جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنـات آدم . وكان بعض الملائكة قد عصى الله ، فأهبط الى الأرض في صورة رجل ، تزوج أم جرهم فولدت له جرهماً[5] . وزعموا ان سهيـلاً كان عشاراً باليمن ، فلما ظلم مسخه الله نجماً[6] . و (الزهرة) ، وقد زعموا انهـا كانت بغياً عرجت الى السماء فمسخها الله شهابـاً[7] . و (البسوس) ، وقد زعموا انها كانت امرأة مشؤومة اسمها : البسوس ، أعطي زوجها ثلاث دعوات مستجابات، وكان له منها ولد ، فكانت محبّة له . فقالت اجعـل لي منها دعوة واحدة . قال : فلكِ واحدة . فماذا تريدين ؟ قالت : ادع الله ان يجعلني أجمل امـرأة

---

١ تاج العروس (٧/٣٨٤) ، (سهل) ، الحيوان (١/٢٩٧) .
٢ الحيوان (١/١٨٧) ، (٤/٧٠) ، حاشية (٦) .
٣ تاج العروس (٤/٢٥٧) ، (نس) .
٤ الحيوان (١/١٥٢ ، ٢٩٧) ، (٦/٦٨ ، ١٥٥) ، (٤/٦٨) .
٥ الحيوان (١/١٨٧) ، (٤/٦٩) ، الروض الآنف (١/٩٧) .
٦ الحيوان (١/٢٩٧) ، (٤/٦٩) .
٧ الحيوان (٤/٦٩) .

في بني اسرائيل . ففعل فرغبت عنه ، لما علمت أن ليس فيهم مثلها ، فأرادت سيئاً . فدعا الله تعالى عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة ، فذهبت فيها دعوتان . فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار،قد صارت أمنا كلبة يعيرنا بها الناس : فادع الله تعالى ، أن يردهـــا الى حالها التي كانت عليها ، ففعل . فعادت كما كانت : فذهبت الدعوات الثلاث بشؤمها ، وبها يضرب المثل[1] .

ونجد عقيدة (المسخ) عند غير العرب أيضاً . ففي التوراة أن الله مسخ امرأة لوط ، فصارت عمود ملح[2] . ونجدها عند الهنود وعند غيرهم من الأمم القديمة . وقد تسرب من اليهودية الى العرب المسلمين كثير من القصص الوارد في المسخ .

وقـــد أنكر بعض المتكلمين (المسخ) ، وأنكره قوم آخرون ، لكنه جوّزوا (القلب) . وهو أن يُقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمـــه طولاً أو عرضاً[3] .

الزندقة :

وقد أشار بعض الأخباريين الى اعتقاد بعض قريش بالنور والظلمة ، زاعمين انهم أخذوه من الحيرة . ويسمي الأخباريون أصحاب هـذا الرأي (الثنوية) ، وأطلقوا على تلك الفئة المذكورة من قريش : (الزنادقة)[4] . ولم يذكروا شيئاً عن زندقة تلك الجماعة من قريش ولا عن رجالها . وأشار بعض أهل الأخبار الى وجود الزندقة والتعطيل في قريش : « وكانت الزندقة والتعطيل في قريش »[5] . وقد وصفوا الزنديق بأنه القائل بدوام بقاء الدهر[6] ، ولا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الخالق . فهو دهري ملحد لا يؤمن بوجود إلـه واحد ، وهو من (الثنوية) على

---

١ تاج العروس (٤/١٠٩) ، (بس) .
٢ التكوين ، الاصحاح ١٩ ، الآية ٢٤ وما بعدها .
٣ الحيوان (٤/٧٣) .
٤ اللسان (١٢/١٢) « زندق » ، (١٠/١٤٧) ، « بيروت ١٩٥٦ » ، تاج العروس (٦/٢٧٣) ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة) ، المعارف (٦٢١) ، المعرب ، للجواليقي (١٦٦) .
٥ البدء والتأريخ ، (٤/٣١) ، بلوغ الارب (٢/٢٢٨) .
٦ اللسان (١٠/١٤٧) « بيروت ١٩٥٦ » ، اللســـان (١٢/١٢) ، « زنـــدق » « بولاق » .

رأي بعض العلماء[1] . والى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ، ذهب أكثر أهل الأخبار . وقد عدّ (أبو العلاء) المعري (شداد بن الأسود الليثي) المعروف أيضاً بـ (ابن شعوب) ، وهـي أمـه ، شاعر زنادقة قريش . وذلك لشعره الذي فيه :

ألا من مبلـغ الرحمن عني بأني تارك شهـر الصيام
اذا ما الرأس زايل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا ؟ وكيف حياة أصداء وهام
أتترك ان ترد الموت عني وتحييني اذا بليت عظامي[2]

والزندقة كلمة معربة ، ذكر علماء اللغة انها أخذت من الفارسية ، أريد بها في الأصل الخارجون والمنشقون على تعاليم دينهم ، فهي في معنى (هرطقة) . وقد صار لها في العهدين : الأموي والعباسي مدلول خاص ، حيث قصد بها (الموالي الحمر) ، الذين تجمعوا في الكوفة ، وكانوا يظهرون الاسلام ويبطنون تعالـيم المجوسية والإلحاد[3] .

وفي كلام أهل الأخبار عن الزندقة ووصفهم لزندقة قريش إبهام وغموض وخلط. وإذا كان الزنديق هو القائل ببقاء الدهر ، وبعدم وجود عالم ثان بعـد الموت ، فتكون الزندقة (الدهرية) ويكون الزنديق هو الدهري لقوله بالدهر وبأبديـة الكون والمادة[4] . أما القول بالثنوية : بالنور والظلمة ، وبالكفر والالحاد، فشيء آخر ، يختلف عن القول بالدهر . والظاهر أن الجمع بين القول بالدهر وبالقول بالنور والظلمة وبالكفر والالحاد ، إنما وقع في الإسلام ، بسبب الخلط الذي وقع بين المعنى المفهوم للفظة في الفارسية القديمة وفي الفارسية الحديثة ، وبالمعنى الـذي ظهر للكلمة في الإسلام . والذي تحول الى زندقة بغيضة تحوي العناصر المذكورة، والتي كانت تؤدي بمن يتهم بها الى القتل .

---

١ اللسان (١٠/١٤٧) ، (زندق) ، الغزالي ، فيصل المتفرقة بين الاسلام والزندقة (١٧٣) ، (١٩٦١) ،

٢ رسالة الغفران (٤٢١ وما بعدها) .

٣ « والحمراء العجم ، لبياضهم ، ولان الشقرة أغلب الالـوان عليهم » ، اللسان (٥/٢٨٨) « حمر » ، Shorter Ency. of Islam, p. 659, Muh. Stud., I, S. 150.

٤ المعرب (ص ١٦٦ وما بعدها) ، اللسان (١٢/١٢) ، (١٠/١٤٧) ، طبعة دار بيروت «١٩٥٦ م » .

وقد أشير في القرآن الكريم الى وجود القائلين بالدهر : « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا ، نموت ونحيـا ، وما يهلكنا إلا الدهر »[1] . وهم على حـد قول المفسرين والأخباريين ، من لا يؤمن بالآخرة وبوحدانية الله . وهو مذهب ودين كان عليه كثير من أهل الجاهلية ، يسخر من البعث بعد الموت ، ويرى استحالة ذلك . ولم يذكر المفسرون أن من عقيدة هؤلاء القول بالثنوية،أي بالنور والظلمة، وبوجود إلهين : إلـه الخير وإلـه الشر .

وقد ذكر (محمد بن حبيب) أسماء (زنادقة قريش) ، فجعلهم : (أبو سفيان ابن حرب) ، و (عقبة بن أبـي معيط) ، و (أبـي بن خلف الجمحي) ، و (النضر بن الحارث بن كلدة) ، و (منبه) و (نبيه) ابنا (الحجاج) الهمّيان ، و (العاص بن وائل) السهمي ، و (الوليد بن المغيرة) المخزومي . وذكر انهم (تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة)[2] . فربط هنا بين الزندقة وبين (نصارى الحيرة) . وقد ذهب (ابن قتيبة) أيضاً ، الى أخذ قريش الزندقة من الحيرة[3] .

والذي نعرفه عن المذكورين،انهم كانوا من المتمسكين الأشداء بعبادة الأصنام . وقد كان (أبو سفيان) يستصرخ (هبل) على المسلمين يوم أُحد ، وينادي : (أُعلُ هُبَلُ ، أُعْلُ هُبَلُ) ، وقد نص على انـه كان من أشد المتحمسين لعبادة الأصنام[4] . ولم يذكر أحد من أهل الأخبار ، انهم كانوا ثنويين على رأي المجوس ، يقولون بإلهين ، بالنور والظلمة ، وانهم تعبّدوا للنـار ، أو تأثروا برأي مزدك أو ماني الذي أضيف اليه الزنادقة ، ولا نجد في آرائهم المنسوبة اليهم وفي حججهم في معارضة الرسول ما يشير الى (زندقة) بمعنى (ثنوية) ، لذلك فزندقة من ذكرت لا يمكن أن تكون بهذا المعنى ولا على هذه العقيدة[5] .

وللوقوف على زندقة من ذكرت من رجال قريش ، ولتحديد معنى زندقتهم، يجب الرجوع الى ما نسب اليهم من آراء والى مـا عارضوا به الرسول وحاربوه

---

١ الجاثية ، الآية ٢٣ .
٢ المحبر (١٦١) ، (زنادقة قريش) .
٣ المعارف (٦٢١) ، الاعلاق النفسية (٢١٧) .
٤ اللسان (٢١٢/١٤) ، تاج العروس (١٦٢/٨) ، (هبل) ، الاصنام (٢٨) .
٥ راجع معنى الزندقة في مروج الذهب (٢٧٥/١) ، (أثناء حديثه على بهرام) .

من أجله . ويمكن حصر ذلك في أمرين : التقرب الى الأصنام والتعبد لها،والدفاع عنها بقولهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى »[1] ، ولا علاقة لهذه العقيدة بالزندقة . والأمر الثاني ، هو القول بالدهر وبالتعطيل ، أي بنكران البعث والحشر والنشر . ويتجلى ذلك في قولهم لرسول الله : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فابعث لنا جدّك : (قصي بن كلاب) ، حتى نسأله عمّا كان ويحدث بعد الموت ، وأمثال ذلك مما له علاقة بنفي وقوع البعث . وهو الذي له صلة بالزندقة . فالزندقة بهذا المعنى قول بالدهر وبدوامه ونكران للبعث ، لا الثنوية بمعنى القول : بالنور والظلمة .

وأما ما يرويه أهل الأخبار من أخذ زنادقة قريش زندقتهم من الحيرة[2] ، أو من نصارى الحيرة[3] ، فإن فيه تأييداً لما قلته من أن الزندقة لا تعني المجوسية والثنوية ، وإنما القول بالدهر ، وانكار المعاد الجسماني[4] . وهو قول قريب من قول من أنكر بعث الأجسام ، وآمن ببعث الروح فقط من النصارى ومن غيرهم من أهل الأديان .

والزندقة بهذا المعنى قريبة من رأي القائلين بالدهر ، وهم (الدهرية) الذين أشير اليهم في القرآن الكريم ، في الآية : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)[5] . وهم من يقول ببقاء الدهر ، وبنكران البعث والآخرة ، والخالق والرسل والخلق على بعض الآراء ، وينسبون كل شيء الى فعل الدهر ، أي الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم . ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا : يد الدهر ، وريب الدهر ، وعُدواء الدهر ، و (الدهر لا يبقي على حدثانه) ، و (الدهر يحصد ربيه ما يزرع) ، وأمثال ذلك من تعابير ، فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما فيه[6] .

---

١ الزمر ، سورة رقم ٣٩ ، الآية ٣ .
٢ المعارف (٦٢١) .
٣ المحبر (١٦١) .
٤ مروج (١٠٢/٢) ، (ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية) .
٥ الجاثية ، سورة رقم ٤٥ ، الآية ٢٤ ، تفسير الطبرى (١٥١/٢٥) ، (القاهرة ١٩٥٤) .
٦ ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
السندوبي (٨٣ ، ١٧١) .

ونسبوا الإماتة الى الدهر ، فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي وما يميتنا إلا الأيام والليالي ، اي مرور الزمان وطول العمر ، انكاراً منهم للصانع . قال أحدهم :

فاستأثر الدهـــر الغداة بهم والدهـــر يرميني وما أرمـــي
يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا ووقرت في العظم[1]

فكانوا في الجاهلية يضيفون النوازل الى الدهر ، والنوازل تنزل بهم من موت أو هرم ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذي يفعله ، فيذمونه ويسبونه . وقد ذكروا ذلك في أشعارهم[2] .

ومن الجمل التي تنسب الفعل الى الدهر ، قولهم : « أصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، وأبادهم الدهر » ، والدهر يجلب الحوادث ، ففي هذه الجمل وأمثالها معنى أن ما ينزل بالإنسان من قوارع ، وما يحلّ به من إبادة هو بفعل الدهر ، فهو إذن المهيمن على العالم والمسخر له[3] .

وقد كان هـــذا الاعتقاد راسخاً في نفوس كثير من الجاهليين ، وفي نفوس كثير ممن أدرك الإسلام فأسلم ، فكانوا إذا أصيبوا بمكروه وبحادث مزعج نسبوا حدوثه الى الدهر ، فسبّوه كما يتضح من حديث : « لا تسبّوا الدهر ، فـــإن

---

١ تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، (٧٨/٢٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) .

٢ تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) .

٣ ديار بني سعد بن ثعلبـــة الالي أذاع بهم دهر على النـــاس دائب
فأذهبهم ما أذهب النـــاس قبلهم ضراس الحـــروب والمنايا العواقب
Caskel, S. 45.

ولست اذا ما الدهر أحدث نكبة ورزءا بزوار القرائـــب أخضعـــا
Caskel, S. 50.

والا تعادیني المنيـــة أغشكـــم على عـــدواء الدهر جيشـــا لهامـــا
Caskel, S. 51.

ابن قتيبة : الشعراء (٢٢٩) ،
غنينـــا زمانـــا بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
Caskel, S. 51.

قال زهير بن أبي سلمى :
واستأثر الدهـــر الغـــداة بهـــم والدهـــر برمينـــي ولا أرمـــى
ديوان زهير (٣٨٥) .

اللهَ الدهر » ، أو (فإن الدهر هو الله) . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر الدهرَ ، وإنما أنا الدهر : أقلب الليل والنهار »[1] . وأحاديث أخرى من هذا القبيل . وقد ذكر (الجاحظ) ، أن من الصحابة والتابعين والفقهاء من نهى الناس من قول : طلع سهيل وبرد سهيل ، وقوس قزح ، كأنهم كرهوا ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ، ومن العود في شيء من أمر تلك الجاهلية ، فاحتالوا في أمورهم ، ومنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق[2] .

وفي هذين الحديثين توفيق لفكرة الجاهليين في الدهر ، وللعقيدة الإسلامية في التوحيد بأن صير الدهرُ اللهَ ، وصيره بعض العلماء من أسماء الله الحسنى . والذي حملهم على ذلك،على ما أرى ، صعوبة إزالة تلك الفكرة التي رسخت في النفوس منذ القدم عن فعل الدهر ، وعن أثره في الكون ، فرأى القائلون بذلك إزالتها بجعل الدهر اسماً من أسماء الله ، أو هو الله تعالى ، وهو واحد أحد ، والدهر واحد أبدي أزلي كذلك ، فلا تصادم في هذا التوفيق بين الرأيين .

وقد وقع هذا التوفيق على ما أعتقد بعد وفاة الرسول في أمور عديدة نسبت الى الرسول،وقد ثبت عدم إمكان صدورها منه . وللحكم على صحة نسبة الحديثين الى الرسول أحيل القارىء على الطرق التي وردا بها ، والى آراء العلماء فيهما ، وأعتقد أنه إن فعل ذلك فسيجد في نسبتهما الى الرسول بعض الشك ، إن لم أقل كل الشكّ .

وتعبر لفظة (الزمان) عن معنى (الدهر) كذلك . وقد ذهب علماء اللغة الى ان الزمان ، أقصر من الدهر ، اذ يقع على الزمان القصير ، أما الدهر ، فالزمان الدائم ، أي الزمان الذي لا ينتهي بنهاية . وأنا لا يهمني في هذا المكان تفريق العلماء بينهما في الطول والقصر ، انما المهم عندي هو ان الجاهليين استعملوا الزمان استعمالهم للدهر ، ونسبوا اليه ما نسبوه للدهر من فعل في الانسان وفي الحياة والعالم . هذا (زهير بن أبي سُلمى) يتشكى منه في قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) . فيقول في مطلعها :

---

١ اللسان (٣٧٨/٥) ، (دهر) ، تاج العروس (٢١٨/٣) ، (دهر) ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ، تفسير الطبرسي (١٣٦/٢٥) ، (بيروت ١٩٥٥) ، صحيح مسلم (٢/١٥ وما بعدها) .

٢ الحيوان (٣٤٠/١ وما بعدها) .

لمن الديارُ بقُنّة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
لعبَ الزمان بها وغيّرها بَعدي سَوافي المُورِ والقَطر[1]

وتجد اللفظة في أشعار غيره من الشعراء الجاهليين والاسلاميين تعبّر عن (غدر الزمان) وعن (كذبه)[2] وتلوّنه وتلاعبه بمقدرات الانسان[3]. وفي كل هذه المواضع التي استعملت فيها تعبير عن تلك العقيدة التي لا تزال راسخة في نفوس كثير من الناس، وهي ان الحياة قسمة ونصيب وحظ ونحت، وانه ليس لمخلوق على ما يقدره له القدر من سلطان. وان الزمان يلعب بالانسان وبالكون كيف يشاء، مع ان الانسان لو فكر في نفسه وتأمّل في عقله، لوجد انه هو الذي خلق الزمان اي الدهر فأوجده على صورته هذه، بأن حدده وعيّنه بسنين وبقرون، وليس الزمان إلا دوام وبقاء لهذا الكون، وليس له اي فعل حقيقي في هذا الكون، والانسان هو الذي أوجد السنين ليقيس بها طول الزمان، لحاجته الى معرفته، وان حسابه بالسنين مهما سيطول، فإنه لن يبلغ ولن يكون في مقدوره بلوغ نهاية الكون.

والمعنى الذي نفهمه من (الدهر) في الشعر الجاهلي، هو الأبدية مع التأثير في حياة الانسان وفي العالم. ولهذا أضافوا اليه بعض الألفاظ التي تشير الى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعدواء الدهر، وأمثال ذلك من تعابير. فنسبوا اليه الفعل في الكون وفي كل ما هو فيه[4].

---

١ وفي بعض الروايات «لعب الرياح»، شرح ديوان زهير (ص ٨٧)، Caskel, S. 44.

٢ أفرحت أن غدر الزمان بفارس قلح الكلاب وكنت غير مغلب
يا مر قد كذب الزمان عليكم ونكأت قرحتكم ولما أنكب
Caskel, S. 51.

٣ ولو سألت سراة الحي عني على أني تلون بي زماني
Caskel, S. 52.

٤ (والدهر لا يبقى على حدثانه)، «والدهر يحصد ربيه ما يزرع».
ألم أخبرك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجالا
ألا انما الدهر ليال وأعصر وليس على شيء قويم بمستمر
Caskel, Die Schiksal in der Altarabischen Poesie, Leipzig, 1926, S. 48, W. L. Schramaier, über den Fatalismus der Varislamischen Araber, S. 12, Bonn, 1881.

ومن نسب اليه القول بالدهر ، الحارث بن قيس ، المعروف بابن الغيطلة[1] .

وتؤدي لفظة (الأيام) هذا المعنى كذلك ، بل استعملت أجزاء اليوم مثل (الليالي) للتعبير عن تلك الفكرة أيضاً . فالليالي هي كالأيام ، لا يمكن أن يطمأن اليها ، ولا ان يوثق بهـا ، إنها تتلون وتتبدّل ولا تخلص لأحد . وحيث أن الليالي هي أوقات الراحة والاستقرار والهدوء ، وأوقات الانس والطرب والإنفراد بالأحبة ، وهي أوقات الغدر والاغتيال والغارات والغزو في الوقت نفسه ، فيكون ذكرها في الشعر وتفضيلها على النهار وتقديمها عليه ، ونسبة الخير أو الشر اليها أكثر من نسبتها الى النهـار شيئاً طبيعياً . لذلك يجب ألا يستغرب ما نقرأه في الشعر وما نسمعه من أفواه الناس من نسبة تبدل الحال والتلون الى الليالي أكـثر من النهار[2] .

وقد استعملت لفظة (عَوْض) في معنى الدهـر والزمان ، وردت في شعر شاعر من شعراء بكر بن وائل ، فعبر بهذه اللفظة عن زمانه . واستخدام بكري لهذه الكلمة ، يشير الى الصنم (عوض) الذي كانت بكر قبيلة هذا الشاعر تتعبد له[3] . وقد أقسموا بها ، فقالوا : (عوض لا يكون ذلك أبداً)[4] ، ولا أستبعد وجود صلة بينها وبين الصنم (عوض) .

وأما (الحِمام) ، فإنه قضاء الموت وقدره ، يقال : (حُمَّ أجله) اي قضي وقدر[5] . وقد وردت لفظة (حم) ومتعلقاتها في أشعار عديدة بهذا المعنى . اي القضاء والتقدير . فورد (ما حُمّ واقع) . وورد (أحم الله ...) و (حمّه الله) ، و (حمت لميقاتي) ، و (حمّي) ، و (حمام الموت) ، و (حمام

---

١ أنساب (١/١٣٢) .

٢ فان تـك غبراء الخبيبـة أصبحت خلت منهم واستبدلت غير ابـدال
بها قد رأى الحى الجميع بغبطـة بهـا والليالـي لا تدوم على حـال
Caskel, S. 45.

٣ « وعوض معناه أبدا أو الدهر . سمي به لانه كلما مضى جزء عوضه جزء أو قسم . أو اسم صنم لبكر بن وائل » ، القاموس (٢/٣٣٧) ، قال الاعشى :
حلفت بمائـرات حـول عـوض وأنصاب تركـن لـدى السعـير
وقيل ان هذا الشعر لرشيد بن رميض العنزي . والسعير اسم صنم كذلك ، تاج العروس (٥/٥٨ وما بعدها) ، (عوض) .

٤ تاج العروس (٥/٥٨) ، (عوض) .

٥ تاج العروس (٨/٢٥٨) .

النفس) ، و (حمام المنون) ، و (حمام)[1] . وهي من حيث هـذا المعنى كالحتف والأجل والآجال والحتوف والمنون .

القضاء والقدر :

ويسوقنا هذا الموضوع الى البحث عن فكرة القضاء والقدر عنـد الجاهليين . فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر ، وبأن الإنسان مسيّر لا مخيّر . وان كل ما يقع له مكتوب عليه،ليس له دخل في حدوثه . ومن هؤلاء القائلون بالدهر والمنون والحمام وما شاكل ذلك من مصطلحات تشير الى وجود هذا الرأي عندهم .

ولا يعني القول بالجبر ، ان قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجـد الكون ، فقد كان من المجبرة من كان ملحداً ، لا يقول بخالق ، وكان منهم من كان مشركاً . كما أن بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهـة . فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق ، وإنمـا هو مذهب يرى ان الإنسان مسيّر ، وأنه يسير وفق ما كتب له ، ومنهم من ينسبه الى علة : هـي الله أو الدهر ، ومنهم من لا ينسبه الى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانيـة وفي الإسلام .

ونجد هذه العقيدة في شعر الشاعر النصراني (عديّ بن زيد العبادي)، وربما نجدها أيضاً عند سائر إخوانه النصارى ومن كان على هذا الدين من غيرهم من العرب . والـواقع ان الاعتقاد بوجود إلـه خلق الكون منفرداً ، أو آلهة خلقوا الكون مشتركين ، يحمل الانسان على أن يتصور نفسه أنه لا شيء تجاه خالقه أو آلهته وانه من صنعهم ، فـا يقوم به ، هو من صنع الله أو من صنع الآلهة .

---

١ قال البعيث :
ألا يا لقـوم كل ما حـم واقـع وللطـير مجرى والجنوب مصارع
وقال الاعشى :
تـؤم سلامـة ذا فـائش هـو اليـوم حـم ليعادهـا
وقال خباب بن غزي :
وأرمي بنفسي في فـروج كثـيرة وليس لامـر حمه الله صـارف
تاج العروس (٢٥٨/٨) .

وهي عقيدة لا بد أن يكون للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إذ ذاك دخل في شيوعها بينهم . ونكاد نجد أكثر الشعوب الشرقية على هذا الرأي . وأما ما ظهر من نظرية حرية الارادة وقدرة الإنسان على خلق أفعاله واختياره ، فإنه من تأثير الفلسفة الاغريقية التي دخلت النصرانية .

ونرى (حاتم الطائي) وهو من النصارى على رأي ، مؤمناً بالقضاء وبالقدر وبما يأمر به الله ، اذ يقول :

اتيح له من ارضه وسمائه ... حمامٌ ، وما يأمر به الله يفعل

فأسند الأمر والنهي في هذا البيت الى الله ، وأما الانسان فإنه مأمور مسيّر .

ونجده يكل أمره الى الله ، ويدعو قومه الى تسليم أمرهم للإلـه الذي يرزقهم اليوم ويرزقهم غداً :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا ... وإن على الرحمان رزقكم غدا

ونجد (المثقب العبدي) مؤمناً بالله ، وبالقدر . فما يقع للانسان يكون بمشيئة الإلـه وقدره :

وأيقنت إن شاء الإلـه بأنه ... سيبلغني أجلادها وقصيدها [1]

و (القدر) و (المقدر) و (المقدور) و (الأقدار) و (القضاء) ، من الألفاظ القديمة التي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحث فيه قبل الاسلام . واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدرية ، لا يعني ان تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الاسلام . بل ان ظهورها في هذا العهد واشتهارها فيه ، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معينة وفي مصطلحات وأفكار توسعت واستقرت في هذا العهد .

ونجد الاشارة الى القدر في شعر الجاهليين والمخضرمين بالمعنى الذي نقصده هنا ، اي شيء مقدر مفروض على كل انسان . هذا لبيد الشاعر المخضرم يذكر ان ما يرزقه هو من فضل الله عليه ، وما يحرمه فإنه مما يجري به

---

١ تاج العروس (٢/٤٦٨) ، (قصد) .

القدر[1] . ونجد فكرة القدر مركزة قوية صريحة في شعره ، فهو يعتقد ان القدر خيره وشرّه من الله ، وان ما يصيب الانسان مكتوب عليه ، ولا راد لما هو مكتوب . ولا دخل لامرىء في عمله ، فليحمد الله على خيره ، وليشكره على شرّه ايضاً ، فهو العالم وحده بما هو صالح وضار[2] . وشعره هذا لا بد ان يكون مما نظمه في الاسلام ، اذ لا يعقل ان يكون من نظم عصر وثني، لما يتجلى عليه من الطابع الاسلامي في الفكر وفي الأسلوب والعرض .

كذلك نجد هذه العقيدة عقيدة القدر في شعر (زهير بن أبي سُلْمى) وفي شعر غيره من الشعراء . هذا زهير يقول : إن المنايا أمر لا مفرّ منه ، وإن من جاءت منيّته لا بد أن يموت ، ولو حاول الارتقاء الى السماوات فراراً منه[3] . ثم نجده يقول :

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم[4]

فليس للإنسان دخل في عمله ، وإنما كل شيء يقع له في حياته هو مكتوب عليه . مكتوب عليه أن يموت في أجله ، وأن يعيش الى أجله ، وان يكون غنياً وأن يكون فقيراً ، وليس للإنسان عمل على سلطان الحظ .

ومن القائلين بالقدر ، (عَبيد بن الأبرص) ، الشاعر الجاهلي الشهير ، المقتول في قصة معروفة مشهورة . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنين بالمنايا وبالمحتّم المكتوب ، وتراه يتوكل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه ، فيقول :

---

١ فما رزقت فان الله جالبه وما حرمت فما يجري به القدر
ديوان لبيد (ص ٥٤) ، (طبعة ليدن ١٨٩١) .
ولا أقول اذا ما أزمة أزمت يا ويح نفسي مما أحدث القدر
Caskel, S. 20.

٢ من يبسط الله عليه اصبعا بالخير والشر بأي أولعا
ديوان لبيد (٨ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) ، (طبعة بروكلمن)
Ency., III, p. I.

٣ ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم
شرح ديوان زهير لثعلب (ص ٣٠) ، « وطر بالذي قد حم » ، Caskel, S. 54.

٤ الحيوان (١٠٣/٢) .

من يسأل الناس يحرموه وسائـــل الله لا يخيب
بالله يدرك كلّ خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـــه شريك علاّم ما أخفت القلوب[1]

ونراه يقول في المنايا :

فأبلغ بنيّ وأعمـــامهم بأن المنايا هي الوارده
لها مدة فنفوس العبـــاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنـــا فللموت ما تلد الوالده[2]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح الناس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر انه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميّالة الى التقشف والتصوف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ او هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟.

ونجد (عمرو بن كلثوم) في جملة من آمـن بالقضاء والقدر ، وبأن الموت مقدر لنا ، ونحن مقدرون له ، وذلك في قوله :

وأنّا سوف تدركنا المنايا مقدرة لنا ومقدرينا[3]

وهو من المؤمنين بالله ، الحالفين به . وذلك كما جاء في بيت شعر نسبوه اليه :

معاذ الله يدعوني لحنث ولو أقفرت أياماً قتار[4]

وكما ورد في أشعار أخرى تنسب اليه .

والشاعر (لبيد) من هذه الطبقة التي اعتقدت ان الله خالق كـــل شيء ،

---

١ البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية ، القسم الرابع (ص ٦٠٧) .
٢ شعراء النصرانية ، القسم الرابع (٦٠٤ وما بعدها) .
٣ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٣٨٤) ، (البيت رقم ٧ من المعلقة) ، شرح القصائد السبع للزوزني (١٤٦ وما بعدها) ، جمهرة أشعار العرب (١٢٠) .
٤ المحبر (٤٧١) .

يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فلا دخل للانسان في عمله . تراه يقول :

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البالِ ومن شاء أضل[1]

وتؤدي لفظة (منا) معنى القدر ، ومنها (الماني) بمعنى القادر ، و(المنيّة) بمعنى الموت ؛ لأن الموت مقـدر بوقت مخصوص[2] . وهي من الكلمات السامية المشتركة الواردة في مختلف لهجات هذه المجموعة . ولهذه الكلمة صلة باسم الإلـه الكنعاني (منى) ، وهو إلـه القدر . ولها أيضاً صلة بالصنم (منوات) (منوت) من أصنام ثمود ، وبـ (مناة) من أصنام الجاهليين[3] .

ومن أصل (منـا) (المنايا) الواردة في أشعار الجاهليين[4] . و (الماني) الواردة في شعر منسوب الى سويد بن عامر المصطلقي ، هو :

لا تأمن الموت في حلّ ولا حرم إن المنـايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غـير محتشمٍ حتى تلاقي ما يمنى لك المـاني

في رواية . و :

لا تأمـنن وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يُمْني لك المـاني
فالخـيرُ والشر مقرونان في قرن بكل ذلك يأتيك الجديـدان

---

١ الاغاني (١١٢/٩) ، (١٢٦/٢١) .

٢ تاج العروس (٣٤٧/١٠ وما بعدها) .
ان المنيـــة منهـــل لا بـد أن أسقى بكأس المنهـل
الاغاني (٧٩/١٥) ،
واذا المنيـة أنشبت أظفارهـا ألفيت كـل تميمـة لا تنفـع

ولو كنت في بيت تسد خصاصه حوالي مـن أبنـاء نكرة مجلس
ولو كان عندي حازيـان وكاهن وعلـق أنجـاسا عـلى المنجس
اذا لاتتنى حيـث كنـت منيتـي يخـب بهـا هاد الى معـرس
Caskel, S. 29.

٣ Caskel, S. 22, Ency. Religi. I, p. 661.

٤ وأن المنايـا ثغـر كـل ثنيـة فهـل ذاك عما يبتغي القوم محضر

وغبـراء مخشي رداهـا مخوفـة أخوهـا بأسباب المنايـا مغرر
ديوان عروة بن الورد (ص ٣٨) ، (تحقيق نولدكه) ، كوتنكن ١٨٦٣) .

على رواية أخرى .

وفي هذا البيت الذي ينسبه بعض الرواة الى أبـي قلابة الهُذلي :

فلا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تلاقي ما يمني لك الماني[1]

وتؤدي كلمة (المنون) معنى الدهر والموت[2] ، وقد تسبق بكلمة (ريب) في بعض الأحيان ، فيقال : (ريب المنون) كما يقال (ريب الدهر)[3] .

ويرى (نولدكه) ان هذه الكلمات هي أسماء آلهة ، وليست أسماء أعـلام ، هي أسماء تعبر عن معان مجردة للألوهية ، وهي مما استخدم في لغة الشعر للتعبير عن هذه العقائد الدينية . فالزمان مثلاً أو الدهر ، لا يعنيان على رأيه هذا إلهـاً معيناً ، ولا صنماً خاصاً ، انما هي تعبير عن فعل الآلهة في الانسان[4] .

وبعض هذه الكلمات — في رأي (ولهوزن) — مثل قضاء ومنيّة ، هي بقايا جمل اختصرت ، ولم يبق منها غير بقايا ، هي هذه الكلمات . فكلمة قضاء هي بقية جملة أصلها (قضاء الله) ، سقطت منها الكلمة الأخيرة ، وبقيت الأولى . وكذلك الحال في منية ، فإنها بقية جملة هي : منية الله ، سقط عجزها ، وبقي صدرها . وهي تعني ان المنية هي منية الله تصيب الانسان[5] .

يبدو ان من الغريب ذكر الدهر والزمان والحمام والمنايا وأمثالها في الشعر ونسبة الفعل اليها ، بينما يهمل ذكر الأصنام فيه أو نسبة الفعل الى الله . فهل يعني هذا ان الجاهليين لم يكونوا يعلمون ان لله سلطاناً وحولاً ، وان المنايا والحتوف وكل خير أو مكروه هو من فعل الله ؟ الواقع ان هذا الذي نذكره يذهب اليـه أهل

---

١ تاج العروس (١٠/٣٤٧) ، اللسان (١٥/٢٩٢) ، (منى) .

٢ تاج العروس (٩/٣٥٠ وما بعدها) .

٣ « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ، الطور ، الآية ٣٠ .

أإن رأت رجـلا أعشى أضـر بـه ريب المنـون ودهر مفند خبـل

نخوفني ريب المنـون وقد مضى لنـا سلف فيس معـا وربيـع

ديوان عروة بن الورد (ص ٤٣) ، نولدكه) ،

أمن المنـون وريبهـا تتوجـع والدهـر ليس بمعتب مـن يجزع

Caskel, S. 41.

٤ Ency. Religi., I, p. 661.

٥ Reste, S. 222.

الجاهلية ولم يقصدوه . وما ذكر الدهر في الشعر ، إلا كتشكّي الناس من الزمان او من الحظ او النصيب في هذه الأيام . وشكواهم من ذلك لا يعني تحديد سلطان الله ، أو نكرانه ، وانما هو بقية من تصور انساني قديم بنسبة كل فعل وعمل الى قوة خفية هي القوة العاملة ، وهي ما عبرت عنها بالدهر وبالزمان . وذلك لما يتصورونه من مرور الأيام والسنين وبلاء الانسان فيه ، وبقاء الأرض والكون، ومثل هذه النسبة والشكوى عامة عند جميع الشعوب البدائية والمتطورة المتقدمة ، فنراها عند القبائل البدائية ونراها عند الغربيين .

ولا يقتصر هذا الاستعمال على الشعر وحده ، بل نجد ذلك في النثر وفي كلام الناس الاعتيادي . لذلك لا أرى صحيحاً ما ذهب اليه بعض المستشرقين من ان نسبة الفعل الى الدهر هو من الاستعمالات الخاصة بالشعر[1] .

وهناك كلمات أخرى تشير معانيها الى هذه الفكـــرة فكرة القدر ، وان الخير والشر وكل ما يصيب الانسان هو مقدر مكتوب . وهي نظـرة لا بد أن تكون قد انبعثت من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ومـن أثر المحيط في الانسان . ومن شعور الانسان بأن قوى خفية تلعب بـــه وتوجهه حيث يشاء[2] . فنسب كل ذلك الى غيره ، وصير نفسه مسخراً موجهاً كالريشة في مهب الرياح.

وتؤدي عقيدة القدر بصاحبها الى التشاؤم ، والى القنوط والاستسلام . والتوجع والتألم ، والتشكي من عبث الدهر بالإنسان ، وهو ليس له دخل في رده وصده. وقد تؤدي بمعتنقها الى الخمول والكسل ، والى العجز في هذه الحياة ، والى ردّ كل مـــا يصيبه بسبب كسله وعدم استخدام قابلياته ومواهبه الى غدر الدهر به وحنق الزمان عليه ، وتلاعب الحدثان بأموره . ونجد أكثر شعراء أهل الجاهلية ، هم على هذه الشاكلة ، يبكون أيامهم ، ويتذكرون الماضي ، ويتوجعون، لأنهم سائرون نحو مستقبل مؤلم موجع،لا حول فيه لإنسان ولا قوة . انه عالم الشيخوخة أو عالم الموت أو عالم الفقر . وأمثال ذلك من العوالم المفزعـــة . يستوي في ذلك امرؤ القيس والشعراء المخضرمون . فأنت اذا تصفحت دواوينهم قلـــما تجد فيهم شاعراً متفائلاً ، أو شاعراً غير مبال بالأيام ، لا يهمه ما يأتي به الدهر ، حتى

---

١ Caskel, S. 54.

٢ والمـال ما خـول الالـــه فـــلا بـــد لـــه أن يحـوزه قـــدر
شرح ديوان زهير (ص ٣١٤) .

ليخيل الينا أن هذا طبع . والواقع أننا نجد الشعراء في الجاهلية والإسلام وأكثر الكتّاب والخطباء على هذا المنوال ، مما يحمل المرء على القول بوجود التشاؤم في طبع العرب .

وموضوع (القدر) من المواضيع التي حيّرت المسلمين أيضاً . فانقسموا في ذلك الى مذاهب . وقد مرّ الرسول بناس كانوا يتذاكرون في القدر ، فقال : انكم قد أخذتم في شعبين بعيدي الغور . أي يبعد أن تدركوا حقيقة علمه، كالماء الغائر الذي لا يقدر عليه[1] .

وقد ذكر علماء التفسير أن قريشاً خاصموا الرسول في القدر ، وأن رجلاً جاء الى الرسول فقال : يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه ، أو في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى، وسنيسره للعسرى[2] . ويظهر من ذلك أن قريشاً أو جمعاً منهم ، لم يكونوا يؤمنون بالقدر ، بل كانوا يؤمنون بأن فعل الانسان منه ، وان لا لأحد من سلطان في تصرفه وفعله .

القدرية :

وذكر ان الشاعر (الأعشى) كان قدرياً ، يرى ان للانسان دخلاً في فعله، وأن له سلطاناً على نفسه ، حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا[3]

فالانسان مسؤول عن فعله ، ملام على ما يرتكبه من قبيح . فالله عادل ، لا يجازي الانسان إلا على فعله ، ولو كان قد قدر كل شيء له ، وحتمه عليه كان ظالماً . وقد أخذ الأعشى رأيه هذا « من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك » .

---

١ تاج العروس (٣/٤٥٧) ، (غور) .
٢ تفسير الطبري (٢٧/٦٤ وما بعدها) .
٣ الاغاني (٩/١١٢) ، (٢١/١٢٦) .

فنحن أمام عقيدتين . عقيدة تقول : إن الله خالق كل شيء ، وان فعل الانسان من تقدير الله وأمره، فهو يفعل بفعله وبحسب ما قدره له ، ورأي يقول ان الانسان خالق فعله ، فهو حرّ مختار ، ولهذا فهو وحده مسؤول عن عمله ، من خير أو شرّ . والرأي الأول أظهر عندهم وأقوى من الرأي الثاني .

الحظ :

وحظ الإنسان ، أي ما يصيبه في حياته ، هو جزء من هذا الموضوع أيضاً . مشتبك به ، متصل بأجزائه . والحظ في اللغة النصيب والجد . أو خاص بالنصيب من الخير والفضل[1] . والنصيب ، هو ما قدر وما قسم لك ، أي حظك. والحظ[2] وهو (البخت) . وقيل : البخت من المعربات ، وقيل من الألفاظ التي تكلمت العرب بها قديماً[3] . وذكر علماء اللغة أن الجد البخت والحظ في الدنيا . ويفهم من الأمثلة الواردة في شرح معنى اللفظة ، أنها في معنى الحظوة والرزق[4] . أي في معنى الشيء الحسن المفرح مما يصيب الإنسان .

قالوا : والحظ موجود في المرزوق والمحروم ، وفي المحارف ، وفي القبائل ، فربما سعدت بالحظ ، وربما حظيت بالجد . وهو كذلك في الشعر وفي النباهة ، ورب عاقل فاهم أديب ، لا يكون إلا دائم الصبر على الشدة ، لسلطان الحظ على الإنسان[5] .

ونظرية (القسمة والنصيب) ، معروفة في الاسلام ، وقد بحث فيها علماء الكلام . فهي من الموضوعات التي بحثت في الجاهلية والاسلام . ونجد أحد الشعراء يقول :

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدود

وهو بيت ينسب لسويد بن حذاق العبدي ، ويروى للمعلوط بن بدل القريعي ، وصدره :

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ تاج العروس (١/٤٨٦) ، (نصب) .
٣ تاج العروس (١/٥٢٥) ، (بخت) .
٤ تاج العروس (٢/٣١٣) ، (جدد) .
٥ الحيوان (٢/١٠٢ وما بعدها) .

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد

أي « انما أتاه الغني لجلادته ، وحرم الفقير لعجزه وقلة معرفته ، وليس كما ظنوا ، بل ذلك من فعل القسام وهو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : نحن قسمنا بينهم معيشتهم »[1] . وفي هذا المعنى قول الشهاب المقري:

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه[2]

وأهل الجاهلية يرجعون القسمة الى الدهر والزمان والحظ . فأبطل الاسلام ذلك، اذ جعلها بأمر الله وقدره . فالله هو مقدر الأقدار ، ومقسم القِسَمْ ، وموزع الحظوظ والأرزاق .

الطبع والطبيعة :

ومن الموضوعات التي لها صلة بالقضاء والقدر ، موضوع الطبع ، أي الخليقة والسجية التي جبل عليها الانسان . فرأي كثير من الجاهليين ، ان الانسان مجبول على طبيعته التي ولد فيها ، وكل انسان على طبيعته ، ولن يستطيع تبديل طبعه ، ولا تغيير السجايا ، لأنها مكتوبة على الانسان مسنونة ، ولا تبديل لما طبع المرء عليه[3] . وطبائع الانسان لا يغيرها إلا الموت . جاء في شعر لبيد :

فاقنع بما قسم المليك ، فإنما قسم الخلائق بيننا علامها[4]

وهو شعر قد يكون مما قاله في الاسلام .

و (زهير بن أبي سلمى) ، ممن يعتقدون بهذه العقيدة ، ويأخذون بهذا الرأي . فهو القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم[5]

---

١ تاج العروس (٥/٢٤٩) ، (حظ) .
٢ المصدر نفسه .
٣ اللسان (٨/٢٣٢) ، (طبع) .
٤ اللسان (١٠/٨٦) ، (خلق) .
٥ التبريزي ، شرح القصائد العشر (٢٤٠) ، (البيت ٥٨ من المعلقة) ، (القاهرة ١٩٦٤) .